١٥

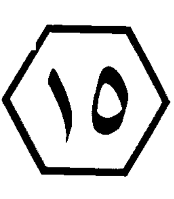
علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

يوسف القرضاوي

فقيه الدُّعاة وداعِية الفقهاء

تأليف
عصام تليمة

دار القلم
دمشق



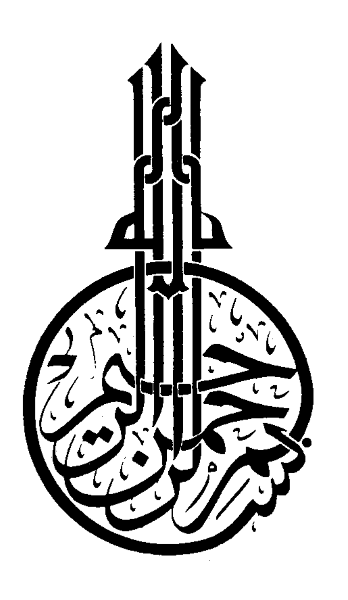
علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

يوسف القرضاوي

فقيه الدعاة وداعية الفقهاء

تأليف
عصام تليمة

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلا أخفي على القارئ تردُّدي الشديد في الكتابة عن الشيخ القرضاوي، لأني كتبت عنه من قبل كتاباً كاملاً تناولت فيه منهجه الفقهي، وهو كتابي التأليفي الأول: (القرضاوي فقيهاً)، وبخاصة أن كثيراً من إخواني رهَّبوني من عواقب الكتابة عن الشيخ، فالشيخ متعدِّد المَلَكات، كما أن الكتابة عنه وهو حيٌّ يثير عليَّ المنتقدين لفكره وفقهه، ولما يسَّر الله لي كتابة كتابي: (القرضاوي فقيهاً) وجدت ترحيباً من كثير من العلماء ومن محبي الشيخ، بل حتى ممن يعارضون فقه الشيخ، على ما وجِّه للكاتب من نقد، إلا أنهم نقدوا بأدب، نقداً علمياً وموضوعياً.

ومما جعلني أحجم عن الكتابة مرة ثانية عن الشيخ، أن الناشر طلب مني أن أكتب كتابة مختصرة عن الشيخ، وأن ألخِّص ما يقرب من عشرين كتاباً من كتبه، وهنا تكمن الصعوبة، فكأنما طلب مني الناشر أن أجمع له البحر في قارورة، أو أن أضع له جبلاً من الرمال في كفة اليد!.

ولكن شجَّعني على الكتابة مرة ثانية أكثر من أمر:

أولاً: الناشر، وهو الأستاذ محمد علي دولة، فقد تحمَّستُ للكتابة لأنه طلب الكتابة مني عن الشيخ، وهو رجل أحبُّه في الله وأقدِّره، فهو صاحب رسالة ـ كما قال لي عنه الشيخ القرضاوي ـ ومبدأ، ومثل هذا الرجل يقلُّ في عالم النشر والطباعة، فقد دخل في هذا المجال مَن لا خَلاق لهم،

إلا من رحم ربي، وليسأل كل مؤلِّف عن معاناته مع دور النشر.

ثانياً: أن الكتاب عن شخص هو حبيبٌ إلى نفسي، فهو شيخي وأستاذي ووالدي[1] وأخي الأكبر الشيخ القرضاوي، ولذا يطيب لي الحديث عنه مرة أخرى، بل وثالثة.

ثالثاً: أني كنت قد وعدت في خاتمة كتابي (القرضاوي فقيهاً) أن أكتب عن الشيخ في عدة مجالات غير مجال الفقه، ولكن أثناني عن عزمي أن كثيراً من الشباب الذين تأثَّروا بفكر الشيخ، بدؤوا في نيل رسائل علمية عن علم الشيخ، فهناك من يكتب عن المنهج الدعوي للشيخ، وهناك من يكتب عن الفقه السياسي عند الشيخ، وهناك من يكتب عن أعمال الشيخ الفكرية، ومسيرة حياته، وهناك من يكتب عن التربية عند القرضاوي، وهناك من يكتب عن القرضاوي والدراسات القرآنية. وكل هذه رسائل جامعية لنيل ماجستير أو دكتوراه.

وكل ذلك كاد أن يثنيني عن العودة للكتابة عن الشيخ، ولكني رأيت أن أكتب عن هذا الجانب لأنه لم يتناوله أحد من قبل عن الشيخ.

كما شجَّعني على الكتابة أني لديَّ مواقف خاصة بالشيخ لم يشهد معظمها سواي، وأخشى أن تضيع من ذاكرتي، ووجدتها فرصة لأدوِّن كل - أو جلَّ - ما علق بذاكرتي من مواقف للشيخ.

وقد اتفقت مع الناشر (الأستاذ: محمد علي دولة) أن يكون عنوان الكتاب: (القرضاوي.. فقيه الدعاة وداعية الفقهاء) عندما طلب مني أن أضع عنواناً للكتاب، فاقترحت هذا العنوان، الذي عرفته أول ما عرفته من كتاب (لقاءات ومحاورات) للشيخ القرضاوي، وقد قدَّمت مكتبة وهبة

---

(١) وإن كان الشيخ في سنِّ جدي، لا والدي.

الشيخ القرضاوي، بهذا الوصف: فقيه الدعاة وداعية الفقهاء.

ثم سمعته أول ما قدمت إلى قطر منذ ثلاث سنوات، من الأخ محمد المصلح وهو من محبي الشيخ، ثم قرأته قريباً في كلمة كتبها الدكتور طه جابر العلواني، ضمن الكلمات المكتوبة عن الشيخ بمناسبة بلوغه السبعين، فقلت: أجعل العنوان كما أشرت، وأشير في المقدمة إلى كل ذي فضل وسَبْق.

وبعد أن انتهيت من الكتاب إلا لمسات أخيرة فيه، فوجئت بأستاذنا الدكتور طه جابر العلواني وقد كتب كتاباً عن الشيخ قريباً من نفس مسلك كتابنا عن الشيخ، وبالعنوان نفسه، فلم أجد بُدّاً من أن أغيّر عنوان الكتاب الذي اخترته، ولكن الناشر فضَّل أن يكون العنوان كما هو دون تغيير، فانتهيت إلى أن أُبقي العنوان كما هو.

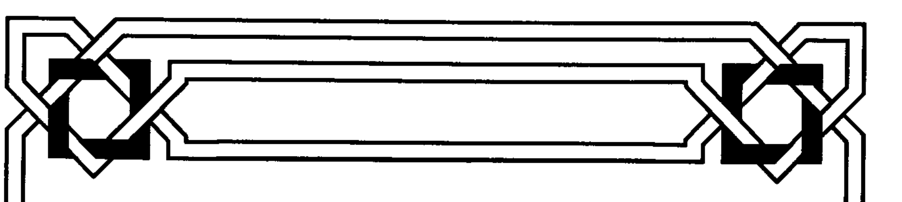
وقد تناولت في هذا الكتاب ترجمة الشيخ؛ وذلك بعرض موجز لمسيرة حياته، ثم تطرَّقت لذكر بعض الصفات التي توافرت في الشيخ، ولم أكرر فيها ما كتبته من قبل في كتابي (القرضاوي فقيهاً) إلا ما كتبته عن أسرته، مع إضافات قليلة، وفقرة: هؤلاء قالوا عن القرضاوي، وقد عدَّلت فيها أيضاً، وأضفت إليها.

ثم تناولت في الفصل الثاني: خصائص الكتابة العلمية عند الشيخ، وقد سألت الشيخ في هذا الفصل عدة أسئلة مهمة، بالإجابة عنها يعرف القارئ كيف يكتب الشيخ، وماذا يكتب، ومتى يكتب، وهل كرَّر القرضاوي نفسه في كتبه، وهل يأتي كمّ الكتب على حساب الكيف؟ وعرضت على عجالة عرضاً موجزاً لكتب الشيخ، ثم عرضت بشيء من التفصيل لعدد قليل من كتبه، حسبما اتسعت الصفحات المسموح بها للكتابة.

ولي رجاء عند القارئ: ألا يبخل على الكاتب بالنصح، فقد كتبت الكتاب على عجل، فقد طُلب مني على وجه السرعة، فأتى الكتاب بعون من الله ومدد، فأسأله سبحانه أن يتقبَّل منَّا هذا العمل، وأن ينفع مؤلفه به يوم القيامة، اللهم آمين.

الدوحة: ٨ من صفر ١٤٢٢هـ
٢ من مايو ٢٠٠١م

الفقير إليه تعالى
عصام تليمة



الفصل الأول

لمحات من حياته

- تمهيد
- نشأته ومؤهلاته
- من صفات القرضاوي
- هؤلاء قالوا عن القرضاوي

الفَصْلُ الأوَّل

لمحات من حياته

تمهيد:

تختلف مذاهب الناس في الكتابة عن الأعلام، وبخاصة فيما يتعلق بترجمته أو ذكر طرف من سيرته، فمنهم من يبرز الجانب الإنساني أكثر من أيِّ جانب آخر، ومنهم من يفضِّل أن يترجم للأعلام عن طريق الفن الذي نبغوا فيه، فالمتنبي مثلاً شاعر، فليترجم له عن طريق شعره، والشافعي فقيه فليترجم له عن طريق فقهه، وهذا ما فعله الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، فهو لم يُعْن كثيراً بسرد حياة الأئمة الذين كتب عنهم، بل كان يكتفي بذكر طرف من حياتهم، ثم يفرد بقية صفحات الكتاب عن فقههم وعلمهم.

وفي هذا الفصل الذي نترجم فيه للشيخ القرضاوي، فضَّلنا أن تكون الترجمة وقفات في حياته دون إسهاب، يستطيع القارئ أن يأخذ منها درساً أو عبرة، وأن يكوِّن صورة مكتملة ـ أو شبه مكتملة ـ عن الشيخ، ويضم إليها الترجمة التي كتبناها في الباب الأول من كتابنا (القرضاوي فقيهاً).

* * *

نشأته ومؤهلاته

ولد الشيخ القرضاوي في ٩/ ٩/ ١٩٢٦م، في قرية (صفط تراب)، من أعمال محافظة الغربيـة، وقد نشـأ يتيماً، فقد مات والده وعمره لم يتجاوز السنتين بعد، وأشرفت على تربيته والدته، ولحرصها على تنشئة ابنها تنشئة دينية أودعته مكتباً من مكاتب القرية ليحفظ القرآن الكريم، وذهب الطفل يوسف القرضاوي في أول أمره إلى شيخ لحفظ القرآن لكن سرعان ما تركه ولم يستمر معه لغلظته وفظاظته في التعامل، وكأن هذا يشير إلى ملمح مهم في حياة هذا الطفل، وهو فطرته التي تأبى العنف والشدة، وبخاصة أنه ضربه لأول مرة ذهب فيها دون ذنب يذكر.

وقد أحيط الشيخ في طفولته بعناية وحب من أهل والده ووالدته على حدٍّ سواء، فقد كان محبوباً ومكرماً.

أتمَّ الشيخ حفظ القرآن ولمَّا يتجاوز التاسعة، وقد عقد أهله حفلة له احتفالاً بحفظ القرآن، أهدي فيها الحاضرون الحلوى.

ثم رأى عمُّ الشيخ ـ الذي كان يرعاه بعد وفاة أبيه ـ أن طريق التعليم الأزهري طريق شاق ومرهق، ولذا اقترح على الشيخ أن يتعلم حرفة، أو أن يفتح له عمه حانوتاً (دكاناً) يبيع فيه ويشتري، ويشتغل بالتجارة. ولكن الشيخ كان كل أمله أن يصبح شيخاً من شيوخ الأزهر، فقد شغف قلبه من الصغر بعلماء الأزهر.

إلى أن قيَّض الله للصبي يوسف القرضاوي رجلاً مرَّ عليهم وهم في

الحقل، وقال لهم: هل عندكم ماء؟ فقالوا: نعم تفضل، فشرب الرجل، وكان شيخاً أزهرياً، ثم قال عمُّ الشيخ القرضاوي للشيخ الأزهري: اختبر لنا هذا الشيخ الصغير. فقال: أتحفظ القرآن يابني؟ قال: نعم، فسأل الشيخُ الصبيَّ يوسف القرضاوي، ولم يخطئ في القرآن خطأ واحداً، فقال الشيخ: أعندكم هذه الثروة وتفرِّطون فيها! لماذا لا تذهبون به إلى الأزهر؟ فقال عمُّ الشيخ القرضاوي: يامولانا نحن أناس فقراء ولا نملك أن نعلمه، ثم بعد أن يتعلَّم لن يشتغل، ألا ترى مصير الأزهريين، وبطالة كثير منهم؟! فقال الشيخ الصالح لعمِّ الشيخ القرضاوي: هل تضمن ما يحدث لك غداً؟ قال: لا، قال: إذن اترك المستقبل لله.

ومن هنا قرَّر عمُّ الشيخ القرضاوي أن يتكفَّل بتعليمه في الأزهر.

وشقَّ الطالب يوسف القرضاوي طريقه التعليمي بنجاح مبهر، فقد كان موضع إعجاب أساتذته، حتى إن والدته ماتت وهو في المرحلة الابتدائية، ولما ذهب لتشييع جنازتها، قابله معلِّم اللغة العربية ـ الذي كان يلقِّبه بالعلاَّمة ـ وهو يبكي قائلاً له: هل سيكون حادث وفاة أمك مانعاً لك عن إكمال مشوارك التعليمي؟ قال له: لا، سأعود إن شاء الله، فجفَّف المعلم دموعه، وقال: الحمد لله.

ثم انتقل الطالب يوسف القرضاوي إلى المرحلة الثانوية، وكان موضع تقدير وإعجاب معلمي هذه المرحلة كذلك، ثم جاءت الثانوية الأزهرية، وكان عام ١٩٤٩م، واعتقل الطالب يوسف القرضاوي مع من اعتقلوا من طلبة الإخوان المسلمين، واغتيل الإمام الشهيد، هذا الرجل الذي ترك أثراً كبيراً في حياة الطالب الأزهري يوسف القرضاوي، الذي حوَّل تديُّنه الفردي إلى تديُّن يهتم بشؤون الأمة جميعاً، وكان لنبأ وفاة البنا زلزلة كبيرة في نفس الشيخ القرضاوي وإخوانه.

ثم أفرج عن الشيخ ليؤدي امتحان الثانوية في الدور الثاني، لينجح

بتفوق وترتيبه الثاني على المملكة المصرية، بفارق نصف درجة بينه وبين الأول.

ثم دخل الشيخ كلية أصول الدين، وتخرَّج فيها بتفوّق وكان ترتيبه دوماً الأول على دفعته.

ثم كان اعتقال ١٩٥٤م، وذاق فيها الشيخ ما ذاق من صنوف العذاب، في تلك المحنة التي أُوذي فيها الإخوان المسلمون بعد الصدام مع عبد الناصر.

وخرج الشيخ في عام ١٩٥٦م، ليفاجأ بمنعه من التعيين في أيٍّ وظيفة بها احتكاك بالجماهير، ويحكي الشيخ عن هذه الفترة في مقدمة كتابه (من أجل صحوة راشدة) فيقول:

«ومما زلت أذكره: أن بعض هذه المقالات نشرتها عقب خروجي من معتقل السجن الحربي في صيف ١٩٥٦م، وذلك في مجلة (منبر الإسلام) التي كانت تصدرها مراقبة الشؤون الدينية بوزارة الأوقاف المصرية.

وكنت أوقِّع على هذه المقالات باسم (يوسف عبد الله) خشية أن يثير لقب (القرضاوي) اعتراض (المباحث) التي وقفت لي بالمرصاد في كل طريق، في ذلك الحين، وحرَّمت عليَّ أي عمل حكومي في أي مجال يتصل بالجماهير، كما في مجال التدريس، ومجال الدعوة والإرشاد وهما المجالان المتاحان لي، واللائقان بتخصصي وتكويني.

وقد حدث أن تقدَّمت للتدريس في معاهد الأزهر، وكان اسمي أول اسم في قائمة المقبولين حيث كان مجموعي أكبر مجموع في المتقدمين من كليات الأزهر الثلاث: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، ولكن حين عُرضت الأسماء على المباحث حذف اسمي من بينها.

لهذا حرصت على ألا أوقِّع باسمي الصريح المعروف، حتى لا أنبِّه الأجهزة المتربِّصة.

ومن الطرائف التي تذكر هنا: أنه كان في الشؤون الدينية بالأوقاف موظف إداري اسمه: يوسف عبد الله، فلما نشر مقالي الأول بعنوان: (أمنية عمرية) بتوقيع (يوسف عبد الله) ظنَّ هذا الموظف أن أحد المشايخ كالشيخ الغزالي أو الشيخ سيد سابق، كتب المقال ووقَّعه باسمه، ليستفيد منه، ويصرف المكافأة المخصصة له. وقد سارع بالفعل لطلب المكافأة وأوشك أن يتمَّ له ذلك، لولا أن زميلاً له كان يعرف السر، فأخبره: من هو كاتب المقال.

وهكذا كادت أن تضيع الجنيهات الخمسة، التي كانت في ذلك الوقت ثروة كبيرة بالنسبة لي!»[1].

مغادرته مصر:

ثم أُعير الشيخ إلى دولة قطر، ليتولى إدارة معهدها الديني في عام ١٩٦١م، وفي صيف هذا العام اعتقل الشيخ في مبنى المخابرات المصرية، لمدة خمسين يوماً، وقد أنشأ فيها أربع قصائد وهي: (ثورة لاجئ)، و(بنت قنا)، و(مناجاة)، و(الفراق الطويل) وهي في رثاء صديقة محمد الدمرداش.

وظلَّ الشيخ إلى الآن في دولة قطر، وقد حصل على الجنسية القطرية، عندما رفضت مصر تجديد جواز سفره، وظل حاملاً لوثيقة قطرية إلى عام ١٩٦٩م، وبعد ذلك حمل الجنسية القطرية إلى الآن.

ثم ساهم الشيخ في تأسيس كلية الشريعة، وتولَّى عمادتها. ثم أسس مركز بحوث السنَّة والسيرة الذي يتولى إدارته إلى اليوم.

---

(١) من مقدمة (من أجل صحوة راشدة) طبعة المكتب الإسلامي.

الجوائز التي حصل عليها:

وقد حصل الشيخ على جوائز عدة وهي :

جائزة البنك الإسلامي للتنمية في الاقتصاد الإسلامي لعام ١٤١١هـ.

كما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية بالاشتراك[1] في الدراسات الإسلامية لعام ١٤١٣هـ.

كما حصل على جائزة العطاء العلمي المتميِّز من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزية لعام ١٩٩٦م.

كما حصل على جائزة السلطان حسن البلقية (سلطان بروناي) في الفقه الإسلامي لعام ١٩٩٧م.

كما حصل على جائزة (العويس) للعطاء العلمي والثقافي سنة ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

كما حصل على جائزة (الشخصية الإسلامية) لعام ٢٠٠٠م.

أسرة الشيخ:

أمَّا عن أسرة الشيخ: فقد رزقه الله أسرة هادئة وفَّقه الله إليها منذ ديسمبر ١٩٥٨م، تتكوَّن من زوجة صالحة من أصول طيبة، هاشمية حسينية، ورزقه الله منها بنين وبنات كانوا قرَّة عين لهما، إنها أم محمد الجندي المجهول في معركة الشيخ الكبيرة، والتي كانت من نعم الله تعالى عليه، وكانت له نِعْم العون على مهمته العلمية والدعوية والتربوية، وهي مهمة لها أعباؤها ومشاغلها ومتاعبها، ولكن الزوجة الأصيلة قدرت

---

(١) كانت بالاشتراك مع العلاَّمة الفقيه الشيخ سيد سابق رحمه الله.

ظروف زوجها ورسالته العالمية، فصبرت على انشغاله بهموم الدعوة والأمة ـ في كثير من الأحيان ـ عن هموم الأسرة، كما صبرت على كثرة أسفاره في الشرق والغرب، حتى كان أحياناً يجيء من السفر، ليستعد لسفرة أخرى، وخصوصاً في العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن، التي انتشر فيها عِلْمُ الشيخ، وارتفع صيته، وكثر طالبوه.

كانت زوجته هي الحارس الأمين للأولاد، بنات وبنين، في غيبة أبيهم، وقد أكرم الله الشيخ وكافأه بأبناء وبنات كلهم نجباء متفوقون، وهم يرون أباهم مثلاً حيَّاً أمامهم، فعليهم أن يشرِّفوه بتفوقهم، ويبرّوه باجتهادهم وإتقانهم.

وقد كانوا جميعاً بحمد الله تعالى عند حسن ظنِّ والدهم بهم، بنات وبنين.

وقد رزق الشيخ البنات قبل البنين: أربعاً من البنات، وثلاثاً من البنين.

كان البنات جميعاً متفوِّقات في دراستهن، وقد اخترن جميعاً أقساماً علمية للدراسة فيها، حيث كان الأدبي، لا يُقبل عليه إلا الكسلانات، كما قلن لأبيهنَّ حين عرض عليهن أن يدخل بعضهن الأدبي، وبعضهن العلمي. وكلهنَّ خريجات جامعة قطر.

تخرَّجت الابنة الكبرى (إلهام) بامتياز في (قسم الفيزياء)، وحصلت على الدكتوراه في (الفيزياء النووية) من جامعة لندن، مبعوثة من قطر.

وتخرَّجت الابنة الثانية (سهام) بامتياز أيضاً (في قسم الكيمياء)، وحصلت على الدكتوراه من جامعة (ريدنج) بإنكلترة في (الكيمياء العضوية)، مبعوثة من قطر.

وكلتاهما تدرِّسان الآن في كلية العلوم بجامعة قطر.

وتخرَّجت الثالثة (عُلا) بامتياز كذلك في (قسم الحيوان)، وحصلت على الماجستير من جامعة تكساس بأمريكة حول الهندسة الوراثية، وعملت بمركز البحوث العلمية بالجامعة، ثم اضطرت إلى الاستقالة لتلحق بزوجها في القاهرة، مع أنها كانت الثانية في دفعتها على جامعة قطر.

وتخرَّجت الرابعة (أسماء) من (قسم النبات)، وحصلت على الماجستير من (جامعة الخليج) في البحرين، وهي الآن تدرس الدكتوراه في (جامعة نوتنجهام) في إنكلترة مع زوجها، وتوشك أن تنتهي إن شاء الله من أطروحتها.

أما الابن الأكبر فهو (محمد) وقد تخرَّج في كلية الهندسة من جامعة قطر، (قسم الميكانيكا) وبعث إلى أمريكة لدراسة الدكتوراه هناك، وقد حصل على الماجستير من جامعة (دنفر) في (كلورادو) وقد انتهى منها، وحصل على الدكتوراه من جامعة (أورلاندو) في فلوريدا.

والابن الثاني والأوسط هو (عبد الرحمن) الذي اختار له خطًّا آخر غير الخط العلمي، وهو الخط الأدبي، فقد التحق ـ باختياره وإرادته، دون أدنى ضغط من والده ـ بالمعهد الديني في قطر، وبعد حصوله على الثانوية منه، التحق بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، واختار شعبة الشريعة والفقه، وتخرَّج بامتياز، وعُيِّن معيداً، وأرسل إلى (كلية دار العلوم) بالقاهرة لدراسة الماجستير في (أصول الفقه)، وقد نوقشت رسالته في ٣٠ يناير ٢٠٠١م، وكان موضوعها: (نظرية المقاصد بين ابن تيمية وجمهور الأصوليين)، وهو أديب وشاعر مطبوع، صدر له ديوان (نزف الحروف) وعنده أكثر من ديوان لم يطبع بعد.

والابن الأصغر، آخر العنقود: أسامة، خريج كلية الهندسة أيضاً،

قسم الكهرباء، وكان المفروض أن يعيَّن معيداً بالكليَّة، مثل أخويه وأخواته، ولكن ظروفاً حالت دون ذلك، فعيِّن بوزارة الكهرباء في قطر، كما يمارس عملاً حراً آخر. وهو لا يزال يأمل في الدراسة العليا حينما تُتاح له الفرصة.

أولئك هم أولاد الشيخ، بارك الله فيهم جميعاً بنين وبنات، وقد تزوَّج البنات كلهن من رجال أكفاء صالحين ـ كما يقول الشيخ ـ ورزقه الله منهنَّ أحد عشر حفيداً من ذكور وإناث، وهو يعتبر زواج البنات جميعاً كان محوطاً بتوفيق الله تعالى.

ولازال الشيخ ينتظر في شوق ولهفة زواج الأبناء، ويدعو الله أن يوفِّقهم إلى زوجات صالحات، كي يُعِنَّ أزواجهم على دينهم، ويسعد هؤلاء الأزواج بهنَّ في دنياهم، ويُرزقوا منهنَّ الذريَّة الصالحة إن شاء الله.

على أن التفوُّق العلمي ليس هو وحده الذي ميَّز أولاد الشيخ، بل ضمُّوا إلى ذلك: الاستقامة الدينية والأخلاقية، فكلهم في مواقعهم مثل طيبة، تجسِّد الضمير الحي، والأدب العالي، والسلوك النبيل، الذي شهد به كل من عاشرهم، وتعامل معهم، في الجامعة، وخارج الجامعة، دون تزمُّت ولا غلو، وبلا تحلُّل ولا تفريط.

* * *

من صفات القرضاوي

مررنا ـ عزيزي القارئ ـ في الصفحات الماضية مرور الكرام على حياة الشيخ، والآن أردت أن أقف وقفة مع خلال الشيخ وصفاته، من خلال معايشتي له، والله يعلم أني ما اختلقت موقفاً، وما تملّقت الشيخ بكلمة مما ذكرت، ولكنها أمانة الشهادة على الرجل، وليعلم الناس كثيراً مما هو مجهول من حياة الرجل، ولا أملك إلا أن أقول بعد كل ما سيقرأه القارئ من صفات: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]، وكلامي عن الشيخ أتى من باب قوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في أرضه».

الوفاء:

كما يتَّصف الشيخ القرضاوي بالوفاء، والوفاء لكلِّ ذي فضل عليه؛ مهما صغر أو كبر الجميل المصنوع معه، تجد ذلك في وفائه لأهله، ووفائه لشيوخه وأساتذته، ووفائه لتلامذته، بل الوفاء للناس كل الناس. ووفائه للمكان الذي ولد فيه، والمكان الذي يعيش ويحيا فيه.

فمن مواقف وفائه لأهله، ما قاله في حفل تكريمه في (دبي) بمناسبة اختياره (شخصية العام الإسلامية) وأخذ يذكر كل ذي فضل عليه، فكان مما قال:

«واسمحوا لي ـ أيها السادة ـ أن أذكر في هذا المقام كل من كان له فضل عليَّ في مسيرتي الطويلة حتى وصلت إلى هذا اليوم المشهود.

أذكر أول ما أذكر والدتي ـ رحمها الله ـ التي كانت أول من دفعني وصحبني إلى الكتَّاب وأنا في الخامسة من عمري.

أذكر عمي أحمد، الذي كفلني بعد موت أبي وأنا رضيع في الثانية من عمري، فكان لي خيراً من كثير من الآباء لأبنائهم، وكان يعاملني كما يعامل أولاده، بل أفضل، وكنت أناديه دائماً: ياأبي.

أذكر أبناء عمي الذين كانوا لي أفضل من كثير من الإخوة لإخوانهم، وكانوا لا يدَّخرون وسعاً لمساعدتي حتى أكمل مشواري في الأزهر.

أذكر خالي عبد الحميد الذي كان يعتزُّ بي، ويملأُ نفسي بالأمل والطموح.

أذكر جدتي وخالاتي اللاتي كنَّ أمهات لي بعد أمي التي لقيت ربها وأنا في الخامسة عشر من عمري.

أذكر أقاربي جميعاً الذين أعطوني من حبهم ما نسيت به يتمي المبكر»[١].

ومن وفائه لشيوخه: وفاؤه للشيخ الغزالي، فقد كتب كتاباً كاملاً عنه، وقد كان الكتاب مقالاً فطال، والشيخ الغزالي يستحق أن تكتب عنه الكتب المطوَّلات[٢]، وقد حكى لي الشيخ القرضاوي موقفاً حدث له مع مجموعة من الشباب وذلك عندما التقوا به في السعودية، وكان قد ذهب للقاءٍ في مؤسسة (دلة البركة) وبعد أن أدى صلاة الظهر، فأوقفه هؤلاء الشباب وقالوا له: أنت الشيخ القرضاوي؟ قال: نعم. قالوا: نريد أن

---

(١) من نص الكلمة التي ألقاها في حفل تكريمه في جائزة دبي.

(٢) ظهرت بعد ذلك رسائل ماجستير عن الشيخ الغزالي: عنه داعيةً، ومفسِّراً، ومربِّياً.

نسألك سؤالاً، فقال: ولكن عندنا اجتماع الآن وأنا مشغول، فقالوا: سؤال واحد ولن نطيل عليك فيه، فقال: تفضلوا اسألوا. قالوا: ما رأيك في الغزالي؟ قال لي الشيخ: فادَّعيت أني فهمت أنهم يسألون عن الغزالي القديم، وأنا أعلم أنهم يسألون عن المعاصر، فقلت لهم: هو حجة الإسلام، ذلك الرجل الذي جدَّد الدين في عصره لمَّا رأى انحرافاً في السلوك وبُعداً عن الروحانية، فكتب موسوعته (إحياء علوم الدين).

فقاطعني أحدهم وقال: نحن لا نقصد أبا حامد الغزالي، إنما نقصد الشيخ محمد الغزالي المعاصر صاحب (السنَّة النبوية بين أهل الفقه والحديث).

فقال الشيخ: الغزالي لسان الصدق، الرجل الذي كافح الاستبداد، وحارب الظلم، ودافع عن الإسلام ضد العلمانيين والملحدين. فقالوا له: لكنه كافر. فقال الشيخ: إذا كان الغزالي كافراً، إذن لا يوجد على ظهر الأرض موحِّد واحد!!.

ومن وفائه لأقرانه من العلماء: الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، كنا قد دُعينا للغداء عند الطبيب الفلسطيني الدكتور عبد الله شحاته، وقد كادت السيارة التي نركبها أن تصطدم بسيارة الشيخ حسن عيسى، وذلك بسبب خطأ ارتكبه سائق الشيخ، فقال لي الشيخ: هذا الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، فقلت ـ ولم أكن أعرفه حينذاك ـ: لا أعرفه، فقال: إنه عالم جليل من العلماء الأثبات المتعمقين في العلوم الإسلامية، وينبغي أن تتعرَّف عليه، ثم أثنى ثناء حسناً على شيخنا الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، وقد وجدت بالفعل أن ما قاله الشيخ القرضاوي في الدكتور حسن عيسى، لم يكن مبالغة في المدح، إنما وفَّى الرجل حقَّه.

والشيخ وفياً كذلك لتلامذته، ترى ذلك في اهتمامه بمشكلاتهم، والسؤال عن أحوالهم المادية وعن شؤونهم.

وما أشد على الشيخ من سماع نبأ مرض أحدهم، فضلاً عن وفاته، رأيت الحزن يملأه عندما مرض الدكتور عصام البشير عندما أصابته جلطة، عندما كان أستاذاً زائراً لكلية الشريعة بدولة قطر.

ورأيت دموعه تنهمر، ويبكي بكاءً حارّاً على وفاة تلميذه الدكتور محمد قُطْبة، وأثَّر فيه أكثر أن مات وهو خارج قطر، وقد حُرِمَ من تشييع جنازته والصلاة عليه، وإن استدرك ذلك فيما بعد، فتكلم عنه في خطبة الجمعة، وصلى عليه صلاة الغائب[1].

ولا يقف الوفاء بالشيخ عند الأساتذة والأقران والأصدقاء والتلامذة، بل نرى وفاءه للمكان أيضاً، فتجده وفياً للمكان الذي ولد فيه، والمكان الذي ينتمي إليه، أو وطنه الأصغر (مصر)، فقد تبرَّع لقريته (صفط تراب) لبناء مسجد ومعهد أزهري، وقد أطلق الشيخ على كل مشاريعه الخيرية في قريته اسم (الصحوة) فأراد بذلك أن ينسبها إلى الأصل، لا أن تُنسب إلى اسمه، فالصحوة أشمل وأعمُّ من القرضاوي[2].

ووفياً لبلده ووطنه الأصغر (مصر) مهما فعل معه أمنها، من مضايقات في الماضي والحاضر، في الماضي من سجنه واعتقاله، بل تعذيبه والتضييق عليه في عمله، بل منعه من أيِّ عمل به احتكاك بالجماهير، حتى ضاق به الحال، إلى أن اضطر إلى أن يظل تسع سنوات لا ينزل مصر، مخافة الاعتقال والسجن، الذي كان آنذاك مؤكداً بالنسبة له، ومع هذا نرى حديثه عن مصر، حديث الابن الذي انتزع من أمه انتزاعاً، ولا يستطيع أن تنتهي السنة الدراسية حتى يحمل حقيبته إلى

---

(١) كما صلَّى في الجمعة التي تليها صلاة الغائب على الأستاذ عادل حسين، وقد بكى في الخطبة على وفاته.

(٢) هذا ما يراه الشيخ.

مصر، رغم ما ذكرنا من مضايقات الأمن المصري له في مطار القاهرة، فهم يوقفون الشيخ من ساعة إلى ثلاث ساعات، ليس لذنب إلا أنه رمز من رموز الدعـوة إلى الله، فبمجرَّد أن يـأتي الصيف ترى الشـيخ يهرع إلى القاهرة ليقضي معظم إجازته بها، يلتقي إخوانه من العلماء والمفكرين، بل من تلامذته كذلك.

بل إنَّ أحد الكتاب المصريين المرموقين، وهو: الأستاذ أسامة أنور عكاشة تساءل بعد أن مدح الشيخ، وقال عنه: هذا الشيخ لا يصرخ، أي: إنه يدعو بالتي هي أحسن، ثم ختم مقاله قائلاً: ولكن سؤال يعنُّ لي: هل تخلَّى الشيخ القرضاوي عن مصريَّـته؟ وذلك لأن الشيخ يحمل جوازاً قطرياً، ويقدَّم في المحافل الدولية بجنسيته القطرية لا المصرية، فكان ردُّ الشيخ عليه:

«وأحبُّ أن أجيب عن السؤال الذي حيَّرك، أني لم أتخلَّ يوماً ـ ولن أتخلى ـ عن بلدي ولا عن أهلي. وكل ما فعلته أني أحمل جنسية بلد عربي آخر عشت فيه أربعين سنة من عمري، فكرَّمني أهله واعتبروني واحداً منهم، ومنحوني جنسـيتهم، وأعطوني جـوازاً خاصّاً، وكان ذلـك في الوقت الذي رفض أهلي أن يجدِّدوا جوازي، وتركوني في العراء.

ومع هذا لم أنقطع عن وطني ولا عن قومي، فهم مني، وأنا منهم. وأقضي إجازاتي الصيفية دائماً في مصر، ولكن مصر هي التي تكشِّر في وجهي كلما ابتسـمتُ لها، وتعضُّ يدي كلما مددتهـا لأصافحها، وأنا أقصد بمصر: الدولة لا الشعب، فأنا ـ بحمد الله تعالى ـ أتمتَّع بحبِّ أبناء وطني كغيرهم من المسـلمين، كما أحسُّ بذلك وألمسه في كل مكان أذهب إليه من أرض الإسلام. وهذه نعمة لا أقدر على الوفاء بشكرها.

بل أقول لك بصراحة: إنَّ كثيراً من إخواننا المسيحيين في مصر وفي أنحاء الوطن العربي يشاهدونني ويبادلونني المودة، وتأتيني منهم رسائل تحية وتشجيع.

إنَّ مشكلة أجهزة الأمن في بلدنا أنها لا تتطور، والملفات القديمة ثـابتة لا تتغيَّر، فهي تعامل يوسف القرضاوي ابن السـبعين، كما تعامل يوسف القرضاوي ابن العشرين! كأن كرَّ الغداة ومرَّ العشيِّ لا يُعلِّم الإنسان!

ماذا أقول لك ياأخي أسامة والكبد مقروحة من معاملة قومي لي؟.

إني أقـابل بـالتَّرحـاب والتكريـم في كل بلـد أزوره علـى أعلـى المستويات، إلا في بلدي، أُحجز في المطار حتى يعرض جوازي على جهات الأمن، سواء دخلت بجوازي المصري أم بجوازي القطري. وأنا عضو في مجامع علمية عربية وإسلامية وعالمية، ولكن بلدي وحده هو الذي لا يعترف بي.

حصلت على جوائز عالمية عدة، لا داعي لذكرها، ينوّه بها كل الناس إلا قومي. حتى إن آخر جائزة حصلت عليها منذ أسابيع (شخصية العام الإسلامية) تحدثت عنها أجهزة الإعلام العربية والإسلامية في بلاد شتى إلا بلدي، عتّمت عليها تعتيماً شديداً، ولا أدري لماذا يعتبرني أهلي خصماً لهم، وليس إضافة إليهم؟!.

ولقد كتب بعض الصحفيين من إخوانك يشكو من أنه كلما فتح قناة من قنوات الخليج الفضائية، رآني فيها، وكنت أحسب أن هذا يَسرُّه ولا يسوؤه، ويعتز به، ولا يضايقه!.

إذا كانت القضية قضية التجنُّس بجنسية أخرى، فقد رأيتهم يحتفون احتفاء بالغاً بالدكتور أحمد زويل، وهو يحمل الجنسية الأمريكية، على حين أحمل جنسية عربية!.

إنَّ الحكومة المصرية تعلم أني أعارض العنف، وأقاوم التطرُّف، وأدعو إلى التسامح، وأرحِّب بالحوار، وأنادي بالتجديد للدين، والنهوض بالدنيا، وأتبنىَ تيار الوسطية الذي يقوم على التيسير في الفتوى، والتبشير

في الدعوة، والموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر. وقد خطبت خطبة شهيرة ندَّدت فيها بمذبحة الأقصر، وأيَّدت قانون الخُلْع... وغيره وغيره، ولكن أخالف السياسة المصرية في بعض النقاط، مثل: الدعوة إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية، وأني لا أعتبر السلام خياراً استراتيجياً وحيداً... إلخ. فلماذا التركيز على نقاط الخلاف، وإهمال نقاط الالتقاء، وهي كثيرة؟ ولماذا لا نتعاون فيما نتفق عليه، ونتسامح فيما نختلف فيه؟.

يا أخي أسامة، لقد نكأت جرحاً غائراً في صدري، وذكرتني بقول طرفة في معلقته:

وظُلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً   على المرءِ مِنْ وَقعِ الحُسَام المهنَّد

ومع هذا سأظل أصل قومي وإن قطعوا، وأبذلُ لهم وإن منعوا، وأسامحهم وإن ظلموا، وأحسنُ إليهم وإن أساؤوا إليَّ، متمثلاً بقول الشاعر العربي:

وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي   وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومَهم   وإنْ هدَمُوا مجْدي بَنَيْتُ لهم مجدا
ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ   وليسَ كبيرَ القومِ مَنْ يَحمِلُ الحقدا

أخي أسامة، إن في الجعبة الكثير، ولكن العرب قالوا: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، ولا أملك إلا أن أقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

أرجو أن تتقبَّل جزيل شكري، وعميق تقديري، وعاطر تحياتي، وخالص دعائي لك بدوام التوفيق»(١).

---

(١) نص رسالة أرسلها الشيخ القرضاوي ردّاً على سؤاله.

وتراه وفياً للمكان الذي آواه بعد أن حُورب ومُنع من بلده الأول مصر، فاتخذ من قطر مركزاً لانطلاقه للعالم الإسلامي، ولم ينس فضل هذا البلد الذي أعطاه جنسية أولاده، واعتبره القطريون أخاً لهم، بل اعتبره كثير من أبناء قطر أباً لهم، وملاذاً عند كل حاجة من الحوائج، فترى الشيخ يذكر قطر دوماً بالفضل، فيقول عنها:

أذكر إخواني وأبنائي في قطر، التي قضيتُ في رحابها أكثر سني عمري، وأخصب أيامه وأنضجها، وأصبحت لي وطناً ثانياً، وغدا أهلها أهلي.

الهمَّة العالية:

كما رُزق الشيخ القرضاوي همَّة عالية وثَّابة، ترى ذلك في كتبه التي جاوزت المئة، وفي أعماله وحركته للإسلام. بل كثيراً ما تقابل هذه الهمَّة العالية بتساؤل شديد من الناس، فكثيراً ما يسأل الشيخ عن السر وراء كثرة مؤلفاته؟ بل يسأله العلماء والدعاة: إننا نحضر مؤتمراً نجدك فيه، ثم نمضي إلى بلادنا وبيوتنا، ونفاجأ بعدها بمدة وجيزة أنك حضرت مؤتمراً آخر، ونحن في بيوتنا. والواحد منَّا يؤلِّف بضع مؤلَّفات تعدّ على أصابع اليد، ويزهى بها، وأنت تربو مؤلفاتك المئة! أنى لك بهذه الطاقة والهمة العالية؟!.

والسرُّ وراء هذا المجهود الضخم ـ كما يقول الشيخ القرضاوي ـ هو لسببين اثنين:

الأول: هو أنّ الله يبارك له في وقته، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى، وصدق الشاعر إذ يقول:

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

الثاني: هو أن الشيخ لا يضيع ثانية واحدة من وقته، فهو يستمثر وقته أينما حلَّ وارتحل، فهو يكتب في بيته، ويكتب في مكتبه، بل ويكتب في الطائرة.

لقيه مرة الدكتور عز الدين إبراهيم في الطائرة فوجده يكتب، فقال له: أنت تكتب في الطائرة ياشيخ يوسف؟ قال: نعم، قال: ولكن ألا تحتاج للمكتبة؟ قال: ما أحتاج للمكتبة فيه أترك له مكاناً حتى أعود لمكتبتي. وهذا بالفعل ما يحدث، حيث إني عندما أكتب له على الكمبيوتر ما يؤلفه الشيخ، أجد بين السطور عبارة: يُترك مساحة تسعة أسطر. عندئذ أعلم أن هذه المسافة موضع نص من التراث، أو نقل من أحد الكتب.

بل يستثمر الشيخ أوقات تنزُّهه فهو يذهب لقضاء يوم أو يومين للتنزُّه والاستجمام، ولكن هيهات أن يحدث هذا، فهو يذهب ومعه أوراقه، حتى إني كنت أفاجأ بعد عودته من نزهته أنه عاد بأوراق للطباعة، فأسأله متى كتبت هذه الأوراق؟ فيقول: في سفرتي هذه. مما يجعل أهله يشتكون: حتى في وقت تنزُّهك تعمل؟!.

ويقول الشيخ عن نفسه: أنا لا أستطيع النوم مادام في رأسي فكر، فإذا أفرغت ما في رأسي من علم وفكر، عندئذ أستطيع أن أنام.

فاستفادة القرضاوي بوقته من أهم الأسباب وراء همّته العالية في الكتابة، وكيف لا وهو صاحب كتاب (الوقت في حياة المسلم).

ولم تقف همّة القرضاوي عند الكتابة، بل تجد هذه الهمة لا تفارقه حتى في أعماله الدعوية. فالشيخ لا يظلُّ في بيته أسبوعاً كاملاً، فهو كثير الأسفار إلى البلاد الإسلامية، إما محاضراً في مسجد، أو في مركز إسلامي في دول الغرب، حتى أصبح الناس يسألون هل الشيخ موجود في الدوحة، هل أتى أم مازال مسافراً؟ لأنهم يعلمون أن الأصل في الشيخ

السفر، حتى لقِّب بـ(الفقيه الطائر) لكثرة أسفاره، ولذا إذا أردت أن تعرف إلى كم بلد سافر الشيخ، فالأيسر أن تسأل: أي بلد لم يذهب إليها الشيخ؟!

بل إني كنت أفرح عندما أنتهي من كتابة كتاب للشيخ على الكمبيوتر، فأفاجأ بكتاب آخر يدفع به إليَّ، وذات مرة أخبرني الشيخ أنه سيسافر أسبوعاً كاملاً، فهششت لذلك، وسُررت لأني سأقعد أسبوعاً كاملاً لأول مرة منذ عملي معه دون عمل، وكانت غلطتي أن ذهبت لألقاه قبل سفره، ففوجئت به يفسد عليَّ الأسبوع ليلقي إليَّ بأوراق تحتاج إلى أسبوعين حتى تُنجز!.

فالشيخ لا يعرف عطلةً، ولا أعياداً ولا جُمَعاً ولا إجازة، ولا يعرف الدَّعَة والراحة.

لقد اتَّسم الشيخ القرضاوي بسمة علوِّ الهمة طوال حياته، فهو رجل عَلَت همته في كل شيء، ففي طلبه للعلم، لا يقبل بالمرتبة الدنيا، بل عينه دائماً على المرتبة الأولى، نال الشهادة الثانوية الأزهرية، وكان ترتيبه الثاني على المملكة المصرية، وكان بينه وبين الأول نصف درجة، ولولا ظروف حدثت له في امتحان مادة (الفقه الإسلامي) لكان الأول بلا منافس.

وبعد ذلك كان الأول على كليَّة أصول الدين، والأول على مرحلة التخصص إجازة التدريس.

وعندما سافر إلى قطر، عرض عليه أن يقدم برامج دينية للإذاعة القطرية والتليفزيون القطري، فلم يتوان، بل لبَّى وأسرع إلى استخدام هذه الوسيلة الفعَّالة لخدمة الإسلام.

ثم بعد ذلك أدرك بسرعة أهمية الفضائيات، فكانت برامجه الفضائية، وبعدها ببضع سنوات، كان انطلاق مشروعه العالمي (إسلام أون لاين).

وأذكر أنه فور فوزه بجائزة (الشخصية الإسلامية) أنه فكر بسرعة في مشروعه الذي طالما ظل يحلم به، وهو مشروع رعاية الموهوبين من أبناء المسلمين.

وقد حدثني الشيخ عنه فقال: إن هناك مشروعين أريد أن يخرجا للنور قبل أن ألقى الله، الأول: مشروع الاتحاد العالمي لعلماء الإسلام، والآخر: مشروع رعاية الموهوبين من أبناء الأمة.

ولما كتب تصورات مبدئية لهذا المشروع، ودعا إليه عدداً من المهتمين بالعلم والشباب، وجلسنا لنتشاور مع من حضر من اللجنة التحضيرية للمشروع، وبعد أن استمع الشيخ لكل الآراء والمقترحات، إذ به بريادته وسبقه المعهود، يقول: انتهينا إذن من هذا المشروع، عندي مشروع آخر أريد أن نتكلم فيه، وهو مشروع: إعداد الدعاة إلى الله، إعداداً علمياً قوياً، يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ولما انتهينا منه، قال الدكتور إسحاق الفرحان مازحاً: ألا يوجد مشروع ثالث نتكلم فيه ياشيخ؟.

وأشهد ـ من واقع معايشتي للشيخ ـ أني ما رأيته يهتم بأمر شخصي، بل إما أن يكلمني عن كتاب جديد يكتبه، أو محاضرة يعدها، أو فتوى يقلب فيها صفحات الكتب، أو مشروع يفيد الأمة يسعى لتحقيقه، أو يعد نفسه لسفر طويل أو قصير، ليس للتنزه بل للدعوة إلى الله عزَّ وجلّ، حتى أشفقت عليه فهذا الجهد الذي يبذله الرجل ليس بجهد مَنْ في سنِّه، وبخاصة بعد آلام ركبته التي بدأت تتعبه أكثر من ذي قبل، وبصره الذي ضَعُفَ عمَّا كان.

إنها حكمة وخبرة الشيوخ التي تحركها وتدفعها حماسة وطاقة الشباب.

سلامة صدره من الأحقاد:

كما يمتلـك القرضاوي قلباً نقيّـاً، يصدق فيه قـول رسول الله ﷺ عندما سئل أيُّ الناس خير؟ قال: «كل مخموم القلب، صدوق اللسان». قالوا: يارسول الله صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، الذي لا غلَّ فيه ولا حسد».

فكثيراً ما يُهاجَم الشيخ، بل ربما يتطاول عليه المتطاولون فلا يوغر صدره بما يتقوَّله المتقوِّلون، بل لو رحت أحصي للقارئ كمية الرسائل التي تأتي من المعتذرين عن تطاولهم على الشـيخ لسوء ظنٍّ ظنُّـوه به، وسبب ذلك إما سماعهم من المغرضين، وإما لسطحية ثقافتهم في الدين، مما يجعلهم يرمون الميسِّر في الفتاوى بالتساهل في الدين، وخفَّة الورع والتقوى والخشية لله.

أذكر يوماً اتصلت فيه امرأة سورية الجنسية، وكان طلبها مني أن أطلب الصفح والعفو من الشيخ القرضاوي لابنها، ولما أخبرتها أن الشيخ له مبدأ في هذه الأمور وهو: العفو والصفح عن كل من أساء إليه، فألحَّت المرأة أن آخذ منه الصَّفح عن ابنها بالاسم، ولما لم أجد مخرجاً ومهرباً من إلحاحها الشديد، وعلَّلتُ إلحاحها بأن ابنها يتصل بها من سورية دوماً ليعفو عنه الشيخ، فأخبرت الشيخ بأمر المرأة وابنها، فما كان منه إلا ابتسم ابتسامة أعهدها فيه عندما يكون الأمر بالنسبة له لا يمثِّل شيئاً عنده، فقال بكل بساطة: أنا أعفو عن كل مسلم أساء في حقي، فأخبر المرأة إن اتصلت أني مسامح ابنها فيما أخطأ به في حقي.

وجاءت امرأة جزائرية مكتب الشيخ تبكي بشدة، ولما سألها الشيخ: ممَّ تبكين ياأختي؟ فقد ظننا أن البكاء سببه مشكلة اجتماعية، أو ضائقة مادية، وما أكثر هذه الحالات التي تأتي لمكتب الشيخ. ولكن فوجئنا بأن المرأة تقول: سامحني ياشيخ قرضاوي لقد ذكرتك بالسوء، وذمَمْتُكَ في

أكثر من مجلس كلَّما جاء ذكرك، كنت أظن أنك بتيسيرك في الفتاوى للناس، أن تديُّنك خفيف، وأنك تفعل هذا من باب إرضاء الناس، ولكني اكتشفت خطأي ووقوعي في ذكرك بما ليس فيك أكثر من مرة، والآن أنا أتيتك لتسامحني، فما كان من الشيخ إلا أن قال لها: ياأختاه ألست مسلمة؟ قالت: بلى. قال: أنا متصدِّق بعرضي على كل مسلم، وأسامح كل مسلم أخطأ في حقي، بل أدعو له بالمغفرة والهداية.

ولقد اكتشفت أن معظم الذين يسيئون الظن بالشيخ سمعوا دعاوى من أناس في قلوبهم مرض الطعن والتجريح في العلماء، ولكن سرعان ما يكتشف المخلصون من الناس زيف ما يدَّعيه هؤلاء.

لازلت أذكر أحد الدبلوماسيين السعوديين، فحكى لي عن تجربة له شخصية مع الشيخ القرضاوي، يقول: وأنا في السعودية ـ قبل أن أرى القرضاوي ـ صُوِّر لي الشيخ القرضاوي على أنه رجل يفتي وييسِّر وهذه تهمة له في دينه، فهو يفعل ذلك عن ضعف، ولما أتيت إلى قطر ورأيت الرجل عن كثب، اكتشفت أن كل ما قيل لي عنه لم يكن صواباً.

بل إنَّ الشيخ يعفو عمَّن يشوش على مسيرته، ويقلِّل من شأن علمه، فقد ظهرت فئتان في الفترة الأخيرة تريدان التشويش على مسيرة الشيخ، فمنهم من هاجم الشيخ من جهة فقهه وعلمه، وذلك لضيقه بالرأي الآخر، فهو يريد الشيخ نسخة كربونية من آرائه، وأن يكون وفق اتجاهه لا وَفْقَ الدليل الذي يلوح له.

والفئة الأخرى: هاجمت الشيخ بضراوة بسبب مواقفه الإسلامية، وما أرادوا بذلك إلا التشويش عليه كرمز إسلامي، وهم الذين يسمون أنفسهم بـ(الأحباش)، وإن كنا نطلق عليهم الأوباش لا الأحباش، ومع ذلك رأيت الشيخ في معرض القاهرة الدولي للكتاب هذا العام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) وكان يتجوَّل في قاعات المعرض، ويقف عند أجنحة دور النشر

التي تتولَّى نشر كتبه، وقد وقف عند جناح (دار القلم) دمشق، وقلت له: انظر هؤلاء هم الأحباش الذين يهاجمونك في مقابل دار القلم دمشق، فما كان منه إلا أن ذهب إليهم وصافحهم، كبقية الدور الأخرى، وذلك بعد أن علم أنهم من جماعة الأحباش. والغريب أنه وهو يسلِّم عليهم يعلم أنهم يبيعون كتيب عنوانه: (تحذير المسلمين من ضلالات يوسف القرضاوي)!.

بل وقف الشيخ في المحفل المهيب الذي عقد بمناسبة حصوله على جائزة (الشخصية الإسلامية) يقول:

«أما الفئة القليلة التي حاولت في المدة الأخيرة أن تقذفني بالحجارة من يمين وشمال، وأن تشوش على مسيرتي، فلا يسعني إلا أن أدعو الله لهم أن يهدينا وإياهم، ويصلح بالنا وبالهم. وقد قالوا قديماً: رضا الناس غاية لا تدرك. وقال الشاعر:

ومَنْ في النَّاس يُرضي كلَّ نفسٍ وبينَ هوى النفوسِ مدى بعيد؟

وفي الآثار الإسرائيلية: أن موسى سأل ربه فقال: يارب، كُفَّ عني ألسنة الناس! فقال: ياموسى، ذاك شيء لم أختصه لنفسي، فكيف أجعله لك؟!.

وفي الحديث القدسي: «كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد! فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً» رواه البخاري عن ابن عباس.

وقد أوذي الإمام أحمد وأُدخل السجن، وأصابه ما أصابه من فتنة (خلق القرآن) المعروفة، فلما انكشفت المحنة، وسألوه عمَّن آذوه، فسامح فيما كان من حقه هو، لا ما كان من حقِّ الله عزَّ وجلّ. وقال كلمته المعبِّرة: ماذا ينفعك أن يدخل أخوك النار؟ فهو يريد أن يسامحهم حتى لا يدخلوا النار بسببه.

وقال الإمام الشافعي:

عُداتي لهم عليَّ فضلٌ ومنَّةٌ   فلا باعدَ الرحمنُ عنّي الأعاديا
فهم بحثُوا عن زلأتي فاجتنبتُها   وهم نافسوني، فارتكبتُ المعاليا

وقد نشأتُ في رحاب دعوة كان مؤسسها حسن البنا عليه رحمة الله يدعو إلى الحب، ويقول: سنقاتل الناس بالحب!.

وأريد أن أؤكّد أنه ليس في حياتي ولا في قلبي متَّسع للضغائن والأحقاد على المسلمين، ولا أشغل نفسي بمعاداة مسلم، وإن خالفني في الاتجاه أو في الرأي، فأنا مشغول القلب والفكر والجهد والوقت، بأعداء الدين، وأعداء الأمة، وما أكثرهم.

أما قومي، فهم مني وأنا منهم، وما أنا معهم إلا كما قال الشاعر:

قومي هم قتلوا أمَيْمَ أخي   فإذا رميتُ يُصيبني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفونْ جللاً   ولئن رميتُ لأوهنَنْ عظمي

ولكني أعفو إن شاء الله وأصفح، كما أنزل الله في شأن أبي بكر حين آلى ألا يعطي بعض أقاربه الذين خاضوا في حديث الإفك، ومسُّوا بألسنة السوء ابنته عائشة أم المؤمنين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وأنا متصدِّق بعرضي على من آذاني من المسلمين، يغفر الله لي ولهم. وأدعو بدعاء التابعين الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

إلا ما كان من حقِّ الله تعالى، وحقِّ الإسلام، فليس من شأني أن

أسامح فيه، فمن كان يعمل لحساب خصوم الإسلام، فإني أستعدي عليه سهام القدر، ودعاء السحر، وكل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه[1].

موقف بين المؤلف والشيخ:

ولِمَ أذهب بعيداً في حكاية ما يحدث للشيخ مع من مخالفيه، بل إن كاتب هذه السطور له مع الشيخ موقف أذكره على عجالة:

أوغر أحدُ الناس صدري على الشيخ، وشوَّه صورته أمامي بالباطل، وذلك أول ما قدمت للعمل مع الشيخ في قطر، مما أشعل جمرة الغضب في صدري، ويعلم عني الشيخ وإخواني، أني إذا غضبت انقلب لساني إلى سوط يلهب، حتى سمَّاه كثير من الإخوة الكرباج ـ أسأل الله أن يخفف من حِدَّته ـ فما كان مني ـ بتسرُّع الشباب ـ إلا أن كتبت رسالة للشيخ، وأعترف أنها بلغت حدَّاً من القسوة ما كان ينبغي أن تصل إلى هذا الحدِّ، وإن لم أتجاوز فيها الأدب مع الشيخ، وللأسف أعطيتها لسائق الشيخ وبعد أن عدت إلى صوابي، كان السائق قد مشى، ليذهب بالشيخ إلى التلفاز القطري (التليفزيون) لتسجيل حلقة من حلقات (هدي الإسلام).

لقد كان وقع الرسالة على الشيخ سيئاً وشديداً في نفس الوقت، فلم يكن يتوقع مني هذه الشدَّة، وأحسَسْت بأنني كنت أحمق عندما سمحت لشيطاني أن يوسوس لي هذه الوسوسة، بل إن شياطين الإنس الذين صوَّروا لي الرجل بهذه الصورة، يحملون وزر هذه الرسالة، ومع ذلك لم يقدم الشيخ على أي فعل يوصف بالتسرّع، وكان يستطيع بكلمة واحدة أن ينهي ما بيني وبينه من علاقة عمل، ولكنه أدرك أني في قطر وحدي، ولعلَّ الوحدة فعلت فعلها معي فأثَّرت هذا التأثير، كما راعى أني شاب وليس لي سابق تجربة بالسفر، فما كان منه إلا أن أرسل إليَّ الدكتور حامد الأنصاري

---

(١) نقلاً عن الكلمة المكتوبة للحفل.

يستوضح مني سبب غضبي منه.

ولكن الدكتور حامد الأنصاري لم يجدني في سكني، وعاد إلى بيته، فاتصل به الشيخ في اليوم التالي وكان يوم الجمعة، وأخبره الشيخ أنه لم يهنأ بالنوم ليلاً، لأنه يخشى عليَّ، ولاحظت أن الشيخ في خطبة الجمعة لم يجدني بين المصافحين له، رغم أني صلَّيت خلفه الجمعة، ولم أذهب لمصافحته كالعادة، فقال لي بعدها: قلت في نفسي: يبدو أن الشيخ عصام قاطعنا!.

ثم جلست مع الشيخ لأبثَّ له ما كان لديَّ من شكوك، ولكني لم أذكر له من أوغروا صدري عليه، لأني أعلم أنه يرفض أن يُذكر أحد في مجلسه بسوء، أو أن يَغتاب إنسان أحداً في مجلسه، وما كان منه إلا أن قال لي كلمات لازال صداها يرنُّ في أذني، قال: يابني أنت في بداية حياتك العلمية والعملية، وأنا آخذ على أبنائنا من أبناء الصحوة الإسلامية شيئين خطيرين:

أولهما: التسرُّع في إصدار الأحكام، والتسرُّع في ردِّ الفعل، وهذا يضرُّ بالدعوة والداعية، ويضرُّك في بحوثك العلمية فيما بعد، فلا تكن متسرِّعاً، ولا تكن عجولاً.

وثانيهما: الغضب، فإنّ الغضب يُخرج الإنسان عن التصرُّف الحكيم، ويجعله يتصرّف تصرفاً غير متَّزن. ثم قال: إنني أعجب منك من أين أتيت بكل هذه الكمية من الغضب، وأنا عهدي بك حيياً!.

ثم قال لي: إنني أعذر من يحقد عليَّ أو يحسدني، لأن الله منحني نعمة لو سجدت لله على الجمر ما وفَّيت الله حقَّه، وهي نعمة محبة الناس، تأتيني الرسائل من أنحاء العالم الإسلامي، بل ويسألني الناس في التلفاز، أو في الندوات، وأول كلمة يلقونها على مسامعي: نحبُّك في الله، هذه الكلمة هي كنزي من الحياة الدنيا. وكأنها عِوضٌ من الله لي عن فقد أمي

وأبي، فقد يتِّمت مبكراً، وعوَّضني الله بحبِّ مَـنْ حولي لي فلم أحـس باليتم.

وانتهى هـذا الموقف الذي كـاد أن يحرمني شـرف الصحبـة مع الشيخ، والتعلم منه عن كَثَب، ولكن هذا الموقف كشف لي عن مَعدِن الرجل، وعن أخلاقه وسَعَة صدره، وعندئذ تذكّرت كلمة قالها لي أحد الإخوة السلفيين: إننا تعلمنا من أدب الشيخ، قبل أن نتعلم من علمه، فانهل من أدبه وعلمه.

معرفة أقدار الرجال:

ومن صفـات القرضاوي أنـه رجل يعرف أقدار الرجال جيداً، لا تُخرجه الخصومة العلمية عن الحَيْدة والإنصاف، وذكر أفضال الرجال وإن خالفوه، اقرأ كلامه في هؤلاء العلماء تجده ينصفهم ويثني عليهم، رغم أنـه لم يتفق معهم جميعاً في كل ما ذهبـوا إليه من منهج أو فكر، أو فقه:

يقول عن مدرسة (المنار) وعن مؤسِّسها العلاَّمة المجدِّد رشيد رضا: «هو تلميذ الشيخ محمد عبده وصاحبه، وناشر علمه، الذي أخذ من شيخه الاستقلال في الفكر، والثورة على الجمود والتقليد، وأضاف إليه التوغُّل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية، فجمع بين القديم والجديد، ووازن بين المعقول والمنقول، وأصبح يمثل بجلاء (السلفية المجدَّدة)، التي تجسِّد الأصالة والمعاصرة بحق. ذلكم هو: العلاَّمـة رشيد رضا، صاحب: مجلة (المنار)، و(تفسير المنار)، والكتب التي كانت في وقتها نماذج تُحتذى، ومصابيح بها يُهتدى (ت: ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)».

ويبدي رأيه في الشيخ بديع الزمان النورسي، وفي كتاباته فيقول:

هو «الداعية المربي، المجاهد الصابر، الذي قاوم علمانية الكماليين، وطغيان أتاتورك، وأشعل جَذْوة الإيمان في قلوب الأتراك، بالتربية والقدوة، وبالكتب الرصينة، وبالرسائل الموجهة، وبالثبات على الحق في مقاومة الباطل. الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (ت: ١٩٦٠م).

ويقول عن الرجل الذي تأثَّر به تأثيراً شديداً، وهو الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، وأكثر شخصية حيَّة أثرت في شخصية القرضاوي.. يقول عنه: «إنه الرجل القرآني، والمعلم الرباني، الذي جسد بدعوته شمول الإسلام وتوازنه، وربانيته وواقعيته، فربط الفكر بالحركة، ومزج العلم بالعمل، وجمع بين التربية والجهاد، كما جمع بين نقاء العقيدة السلفية، وروحانية الصوفية السنِّية. ودعا إلى الإسلام عقيدة ونظاماً، ديناً ودولة، عبادة وقيادة، مصحفاً وسيفاً. وحارب الفساد والظلم في الداخل، والاستعمار والصهيونية في الخارج، وربى على الإسلام جيلاً جعل الله غايته، والرسول أسوته، والقرآن شرعته، والجهاد وسيلته، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه. إنه مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في العالم: الإمام الشهيد حسن البنا (ت: ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، واضع أسس العمل الإسلامي الجماعي، الذي انتشرت رسائله وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه في العالم كله انتشار أنوار الفجر. وشاء الله أن تكون المحن المتتابعة التي صُبَّت على إخوانه وتلاميذ مدرسته، سبباً في هجرتهم بدعوتهم، وتفرقهم في أقطار الشرق والغرب، فتنتشر بهم الدعوة والصحوة في كل مكان».

ويذكر بالثناء العطر العلاَّمة المودودي فيقول عنه: «المفكِّر المجدِّد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بيِّنة. صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) و(أعداء السنَّة) والمنادين بنبوَّة جديدة (القاديانيين)، و(المرتزقة) من

الخرافيين والقبوريين، و(مشوِّشي الفكر) من المقلِّدين الجامدين..
مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية: العلاَّمة أبا الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) الذي اتفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنا، وإن لم يلتقيا، وإنما التقى أبناء المدرستين، وتعاونوا في مجالات شتى، وخصوصاً في أوروبة وأمريكة والشرق الأقصى».

ويذكر فضل العلاَّمة ابن باديس وأثره فيقول عنه: «العالم الداعية المربي، الذي عاش للقرآن مفسِّراً ومطبِّقاً، دعا إلى السلفية الواعية، والروحانية الصافية، وحارب الجمود في الفكر، والانحراف في العقيدة، والعِوَج في السلوك، ووصل العلم بالتربية، مؤسس (جمعية العلماء) في الجزائر، ومنشئ مجلة (الشهاب) التي كانت كاسمها نوراً يهدي الحائرين، ورجماً يرهب الشياطين، الشيخ المصلح: عبد الحميد بن باديس (ت: ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)».

ويقول عن الفقيه الدكتور مصطفى السباعي: «الداعية الفقيه، الصابر المجاهد، صاحب الروح المشرق، والبيان المغدق، والعقل المتفتح، الذي قاوم أعداء السنَّة فأسكتهم، ودعاة العلمانية فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلامية في سورية، ومنشئ مجلة (حضارة الإسلام) وصاحب الكتب القيمة، والرسائل النافعة: الشيخ الدكتور مصطفى السباعي (ت: ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

ويذكر الشهيد الأديب سيد قطب، وفضله وأثره في الحركة والفكر الإسلامي، رغم مخالفته له في بعض آرائه، ولكن هذا لا يمنعه من أن يقول فيه ما يستحق، لقد قال عنه: «الرجل الصلب، الذي أُوذي في الله، فما وهن وما ضعف وما استكان، وقدَّم عنقه فداء لفكرته.. صاحب القلم البليغ، والأدب الرفيع، والروح المحلِّق، والبيان المشرق، والمنهج

الـواضح، والفكر الثائر.. صاحب (التصويـر الفني)، و(العدالـة)، و(الظلال)، و(المعالم)، وغيرها من الكتب التي انتشرت في لغات العالم الإسلامي، شرقاً وغرباً.. الأديب الكبير، الداعية الشهيد: سيد قطب (ت: ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)».

ويقول عن شيخه وأستاذه إمام الدعاة إلى الله ـ في العصر الحديث ـ محمد الغزالي: «إنه الداعية الكبير، والكاتب القدير، والخطيب الأصيل، أديب الدعوة الإسلامية، ولسانها الناطق بالحق، الجاهر بالصدق، المعبِّر عن خلجات الجماهيـر، الذي قـاوم الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الصليبي، كما قاوم التديُّن المغشوش، والفهم المعلول للإسلام، ببيـانه الزاخر، وأدبه الساخر، وكتبه التي شـرَّقت وغرَّبت: الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)».

ويقول عن العالم الكبير الشيخ سعيد حوى، رغم مخالفته لبعض آرائه أيضاً: «إنه العالم الداعية البحَّاثة، صاحب التآليف التي راجت بين شباب المسلمين، والتي تحمل الروح الثورية، والدعوة الجهادية، مثل (الأصول الثلاثة: الله، والرسول، والإسلام)، و(الأساس في التفسير)، و(الأساس في السُّنَّة): الشيخ سعيد حوى (ت: ١٩٨٩م)».

ويقول الشيخ عن بعض رجالات الإسلام، الذين خدموه حتى وفاتهم، وذادوا عن حياضه، وردُّوا الناس إليه ردّاً جميلاً فيقول:

«ومن هؤلاء: شاعر الإسلام في الهند، الفيلسوف المفكِّر، الذي أيقـظ بفكـره العقـول، وبشعـره القلـوب، الـدكتـور محمـد إقبـال (ت: ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)».

ومنهم: أمير البيان، ومحامي الإسلام، الأديب العالم الموسوعي المؤرِّخ المصلح، صاحب المقالات الناصعة، والتعليقات الرائعة، والكتب النافعة، الأمير شكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م).

ومنهم: أديب العربية والإسلام، الذي جعل الله من قلمه للحق سيفاً يمحق به الباطل، صاحب الروائع البيانية، والمعارك الأدبية في نصرة الإسلام، ومقاومة دعاة التغريب: مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

ومنهم: الكاتب والباحث الموسوعي، مؤلف (دائرة معارف القرن العشرين) في عشرة مجلدات، وعدد من الكتب في فضل الإسلام وموقفه من المدنية، وفي الردِّ على الماديين، وقد تولَّى تحرير (مجلة الأزهر) نيفاً وعشرين سنة: محمد فريد وجدي (ت: ١٩٥٤م).

ومنهم: الكاتب العلاَّمة، المؤرِّخ المحقق، أحد روّاد الصحافة الإسلامية، والمحامين عن التاريخ الإسلامي، وأستاذ مدرسة التمحيص والتحقيق فيه، صاحب مجلتي (الفتح) و(الزهراء): السيد محب الدين الخطيب (ت: ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٩م).

ومنهم: الكاتب العملاق، صاحب العبقريات الإسلامية، الذي سخَّر قلمه في سنواته الأخيرة لبيان حقائق الإسلام، وأباطيل خصومه، ومقاومة الدعوات الهدَّامة من الشيوعية وغيرها: عباس محمود العقاد (ت: ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).

ومنهم: داعية النهوض الحضاري، المفكِّر المسلم، المتميِّز بعقلانيته وعمق تحليله، صاحب (الظاهرة القرآنية)، و(شروط النهضة) و(صراع الأفكار) وغيرها: المفكر الجزائري مالك بن نبي (ت: ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

ومنهم: المفكر المربي الداعية الناقد البصير، مؤلف (نظام الإسلام) وغيره من الكتب المتميزة الأصيلة: الأستاذ محمد المبارك (ت: ١٩٨١م).

ومنهم: العالم الاجتماعي المرموق، الذي كشف عن فلسفة الإسلام الحق للغربيين، وصحَّح مفاهيمه لهم، وردَّ على أباطيلهم، وتبنّى فلسفة

(إسلامية المعرفة) ولاسيما في العلوم الاجتماعية، الأستاذ الشهيد إسماعيل الفاروقي (ت: ١٩٨٠م).

ومنهم: الخطيب المصقع، الذي هزَّ أعواد المنابر، وأرعب أرباب الكراسي، صاحب الطريقة المتميِّزة، والبيان المتدفق، والأسلوب الساخر، الذي شدَّت خطبه الجماهير المسلمة في مصر، وانتشرت أشرطته في المشارق والمغارب: الشيخ عبد الحميد كشك (ت: ١٩٩٦م).

ومنهم: العالم الجليل، والداعية النبيل، والمفسِّر البارع للقرآن الكريم، وصاحب النظرات واللفتات الرائعة لكتاب الله، الشاعر المطبوع، والمعلم الموهوب: الشيخ محمد متولي الشعراوي (ت:١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

ومنهم: أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، الكاتب المبدع، والمحدث الممتع، والقاضي الفاضل، والمعلم البارع، الذي شدَّ الناس بأحاديثه التلفزيونية والإذاعية الرائعة: الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

ومنهم: علامة الهند، ورباني الأمة، وبقية السف، العالم العامل، والحبر الكامل، الزاهد المجاهد، صاحب الكتب الفائقة، والرسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، الذي أجمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، والتقليديون والمعاصرون، الداعية الكبير: الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي (ت: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

ويقدِّر الشيخ القرضاوي للجماعات الإسلامية قدرها، وينوِّه بفضلها، وما لها من جهد في خدمة هذا الدين، وإن اختلف مع بعض دعاة هذه الجماعات خلافاً لا يفسد للودِّ قضية[١]، فيقول بعد أن ذكر الجماعة

---

(١) بل قال الشيخ عن ذكره وتقديره لهذا الجماعات إنما هو من باب ذكر فضلهم وجهودهم في خدمة الإسلام، ونوَّه على ذلك فقال: وتأثير هذه الجماعات=

التي تربَّى فيها (جماعة الإخوان المسلمين):

«ومنها: جماعة الدعوة والتبليغ، التي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم والعرب، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة، بعد شرور المعصية، وشرود الغفلة. وقد بدأت في الهند وباكستان، ثم انتشرت في العالم، ومن مؤسسيها وروادها: الشيخ محمد إلياس، والشيخ محمد يوسف، وخلفاؤهما.

ومنها: الحركة السلفية، التي عنيت بتصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة، وتحريرهما من الشركيات والخرافات، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنَّة، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق، ومن روَّادها: الشيخ محمد حامد الفقي في مصر، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربية السعودية، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في بلاد الشام، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت.

ومنها: الجمعية الشرعية، للعاملين بالكتاب والسنَّة، في مصر خاصة، التي كان لها دورها في إقامة السنَّة، ومحاربة البدعة، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجه الأكمل، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي، وخلفه ابنه الشيخ أمين، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري، والشيخ محمود عبد الوهاب فايد.

ومنها: جماعة الجهاد التي ربَّت أتباعها على معاني القوة والصلابة، والخشونة إلى حدٍّ العنف، وحب البذل والتضحية، والاستشهاد في سبيل الله، ومن أشهر رجالها: العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمن، والسيد عبود الزمر.

= ليس متساوياً. كما أن لكلٍّ منها مالها وما عليها من ناحية فكرها، وأهدافها، ومناهجها وأساليبها، ولكن ليس هذا مقام النقد أو التقويم لها.

ومنها: حزب التحرير الإسلامي، الذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية، وإعادة الخلافة الإسلامية، والذي أسَّسه الشيخ تقي الدين النبهاني».

الأمـل:

وممَّا امتاز به القرضاوي كداعية: تفاؤله واستبشاره حتى وإن يأس الناس من حوله، تـراه يؤمّل في الله، وينشر الأمل فيمن حوله، ولعل القارئ يدرك ذلك جيداً بمجـرَّد أن نذكر رسـالته القيِّمة: (المبشِّـرات بانتصار الإسلام) والتي بثَّ فيها الأمل في نفوس الدعاة، لما رآه منهم من يأس بسبب ما يحدث للإسلام من اعتداء من أعدائه في الخارج، ومن عملائه في الداخل.

والشـيخ في أشدِّ ظروفه شـدَّة وضيقاً تراه يستبشر، وهذه النظرة المؤمِّلة ليسـت وليدة الكبر والشـيخوخة، أعني أنها ليسـت من حكمة الشـيوخ، فهي في نفس الشيخ من الصِّغر، حتى في عنفوان الشـباب، وليس أدل على ذلك من قصيدته الرائعة (الملحمة النونية) تلك القصيدة التي صوَّر فيها الشيخ ما تعرَّض له الدعاة في عهد (عبد الناصر) من تعذيب بشع، وقد قصَّ الشيخ بعض ما حدث له، حتى تركت هذه المحنة في جسد الشيخ بعض آثارها، فأثرها لا يزال على ركبته التي إذا صدمت بشيء يشعر بألم شديد.

صوَّر الشيخ في قصيدته ما جرى له ولغيره من تعذيب فقال:

قُـلْ للعَـواذلِ إنْ رَميتُـم مصْـرَنَـا ... بتَخلُّـفِ التَّصنيـعِ والتَّعـديـنِ
مصرُ الحديثةُ قَدْ عَلَتْ وتقدَّمَتْ ... فـي صَنعـةِ التَّعـذيـبِ والتَّقـريـنِ
وتفنَّنَـتْ كـي لا يَمَـلَّ مُعَـذَّب ... في العَرْض والإخْـراجِ والتَّلْويـنِ
أَسَمِعْـتَ بـالإنسـانِ يُنفـخُ بَطنُـهُ ... حتَّـى يُـرى فـي هَيئَـةِ البَـالـون

أسمعتَ بالإنسانِ يُضغطُ رأسُهُ ... بالطَّوقِ حتَّى ينتهي لجُنونِ
أَسَمِعْتَ بالإنسانِ يُشعَلُ جِسمُهُ ... بالنَّارِ وَقَدْ صَبَغُوهُ بالفَزْلَيْنِ

إلى آخر ما ذكر من صنوف العذاب، ومع ذلك تراه لا ييأس بل يؤمِّل في انفراج الأزمة، لأنه يعلم أن اليأس حرام، فلا يجوز للمسلم أن ييأس، كما أنه من صفات الكافرين، ومن شيم الضالين، فالله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، فتراه يقول في آخر قصيدته، بعد ما ذكر من صنوف العذاب:

صبراً أخي في محنتي ... لابدَّ بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة وقد ... ارتمى في السجن بضع سنين
أمسٌ مضى واليوم يسهل بالرضا ... وغداً ببطن الغيب شِبه جنين
لا تيأسنَّ من الزمان وأهله ... وتقُلْ مقالة قانطٍ وحزين
شاةٌ أسمِّنها لذئب غادر ... ياضَيْعة الإعداد والتسمين
فعليك بَذْر الحب لا قطف الجَنَى ... والله للساعين خير معين
سنعود للدنيا نُطِبُّ جراحها ... سنعود للتكبير والتأذين
ستسير فُلْك الحق تحمل جنده ... وستنتهي للشاطئ المأمون
بالله مرساها ومجراها فهل ... تخشى الردى والله خير ضمين

رجوعه إلى الحق:

كما اتَّسم الشيخ بصفة مهمة جداً لطالب العلم، وللعالم الفقيه، الذي ينشد الوصول إلى الحق، أينما وجده التزم به، وهي صفة: الرجوع إلى الحق. والشيخ رجل رجَّاع إلى الحق، إذا وجد دليلاً أقوى مما استشهد به، أو اكتشف ضعف رأيه، تراجع عنه دون كِبْر أو استعلاء، أو مخافة أن يقال عنه: إنه لا يثبت على رأي.

ترى هذه الصفة واضحة في فتاوى الشيخ، فتراه يتراجع عن بعض آرائه بعد أن يلوح له دليل آخر، مثل: فتواه (إسلام المرأة قبل زوجها) وهي قضية تكون في بلاد الغرب، حيث تُسلم المرأة التي لم تكن على دين الإسلام، ويكون زوجها غير مسلم، فتسلم المرأة، ولا يسلم الرجل ويظل على عقيدته، والقضية فيها عدة آراء، ولكن الشيخ كان يفتي بالرأي القائل بالتفريق بين الزوجين لاختلاف الملَّتين، بل منذ ما يقرب من ربع قرن، كان الشيخ في أمريكة وكان معهم الدكتور حسن الترابي، ولما سئل عن ذلك قال: لا يفرَّق بينهما وتظل مع زوجها غير المسلم، وثار عليه الثائرون، وكان الشيخ ممَّن ثاروا على رأي الدكتور الترابي، ولكن بعد مرور ربع قرن تراجع الشيخ عن رأيه، واقتنع بالرأي الآخر، وبيَّن ذلك أنه كان ممن يعارض الدكتور الترابي، ثم رجع عن رأيه.

وفي مسألة (شراء البيوت للسكنى بالقرض الربوي في الغرب) وكان الشيخ يفتي بحرمتها إلى وقت قريب، وذكر أنه كان منذ ما يزيد على ربع قرن في دول الغرب، وكان معه الشيخ مصطفى الزرقا ـ رحمه الله ـ وكان يفتي بجواز ذلك، وكان الشيخ يخالف الشيخ الزرقا فيما ذهب إليه، ولكن بعد ربع قرن اقتنع الشيخ بفتوى الشيخ الزرقا، وأفتى بجواز شراء البيوت بالقرض الربوي في بلاد الغرب.

بل قد يتراجع الشيخ عن رأي يخالف فيه رأيه السابق، فيكون له رأي فيما كتب قديماً، ورأي فيما كتب حديثاً، كما في فتواه عن (جوائز السحب الكبرى) فقد أباحها في أول الأمر، ثم اقتنع بعد ذلك بتحريمها.

القرضاوي الإنسان:

كما يجدُ الناظر إلى الشيخ القرضاوي كإنسان عدَّة مواقف جديرة بالذكر، فالشيخ يمتاز بروح خفيفة مَرِحَة، إلفٌ مألوف، يحب الناس،

ويحبه الناس، باسم الثغر، وتحسُّ فيه بأنه كما يقول المصريون: ابن نُكتة، أي يجلب السرور والضحك للناس، ويلتقطها التقاطاً، ليزيِّن بها مجالسه.

من هذه المواقف: في يوم من الأيام أبلغته أن الدكتور عصام العريان قد خرج من سجنه، وقد حُمِّلت أمانة تبليغه السلام، فلما أبلغت الشيخ سلام الدكتور عصام، اتصل به من الدوحة، وقال له الشيخ: أهلاً بالصوت الحبيب الذي غاب عنَّا طويلاً، ثم سأله الدكتور عصام عن صحته، فقال الشيخ: الحمد لله، ولما سئل الشيخ عن أولاده وأحفاده، قال: عندي أحد عشر حفيداً، كلهم من البنات، أنا الذي يسميه الفقهاء: الجد الفاسد[1].

وفي عقيقة حفيدة من أحفاده، قال الشيخ للحاضرين مازحاً: أتدرون ماذا أكون لهذه البنت؟ أي كصلة قرابة، أنا جدٌّ فاسد لهذه البنت.

وعندما يسأل الشيخ أسئلة ليست من الدين، ولا يجد لها إجابة، عندها يخرج منها بطرفة، ومن ذلك أن شخصاً سأله عن تفسير رؤيا، فقال له: ياأخي أنا يوسف القرضاوي ولست يوسف الصديق.

ومن طُرفه التي حكاها لنا الشيخ، عندما كنا في بيته (في الدوحة)، وقد زاره الشيخ وجدي غنيم، وأخذ يحكي لنا نوادر المعتقلات والسجون، وسألناه عن أيِّ نوع من الطعام لا يأكله، فقال: الفاصوليا، فقلنا: لم؟ قال: أنا مانعها من بيتي، لأني ظللت نحو ثمانية أشهر سنة ١٩٤٩م في المعتقل، ونحو سنتين من سنة ١٩٥٤م إلى ١٩٥٦م، ولا طعام لنا ليلاً ونهاراً إلا الفاصوليا، فلما تزوَّجت قلت لزوجتي في أول يوم من زواجنا: أنا عندي مخزون من الفاصوليا يكفيني إلى نصف قرن قادم،

---

(١) الجد الفاسد هو الجد لأم.

فلا أحب أن تطبخ في بيتي، وفعلاً لم تدخل بيتي مطلقاً.

وقد حكى لي الدكتور الحبر نور الدايم يوسف طرفة للشيخ حدثت في بيت الدكتور عصام الدين البشير[1]، عندما دعاهم الدكتور عصام في بيته لوليمة، فلما دخل الشيخ ووجد المائدة قد امتلأت بما لذَّ وطاب من الطعام، قال مازحاً: يبدو أن الأخ عصام فاهم لدعوته جيداً.

هذه أخي القارئ بعض صفات الشيخ كما رأيتها بعيني رأسي، وهناك الكثير لم أذكره، مخافة أن أتجاوز ما سمح لي من صفحات، فيطول الكتاب عما قدِّر له من صفحات.

* * *

(١) وزير الأوقاف السوداني.

هؤلاء قالوا عن القرضاوي

نال الشيخ القرضاوي محبّة كثير من العلماء، والثناء عليه منهم، في الصغر كما أسلفنا القول وذكرنا معلّمه الذي لقّبه بالعلاّمة، وقد كان آنذاك صبياً يافعاً، وسيأتي فيما بعد عند الحديث عن كتابي: (الحلال والحرام)، و(فقه الزكاة) ثناء الأستاذ أبي الأعلى المودودي، والأستاذ محمد المبارك، وإليك عزيزي القارئ بعض مقولات العلماء والمفكرين وقادة الحركة الإسلامية.

حسن البنا(١): إنه ـ أي القرضاوي ـ لشاعر فَحْل.

محمد الغزالي(٢): القرضاوي من أئمة العصر، الذين جمعوا بين فقه النظر، وفقه الأثر.

وقال أيضاً: لقد سبق القرضاوي سبقاً بعيداً، وحينما سئل عنه قال: أنا مُدرِّسه، وهو أستاذي، الشيخ يوسف كان تلميذي، أما الآن فأنا تلميذه.

---

(١) هو الإمام الشهيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ومناسبة هذه الكلمة: عندما كان الشيخ القرضاوي طالباً في القسم الثانوي، وقد ألقى قصيدة أمام الإمام البنا في احتفال للإخوان المسلمين بطنطا، وكان هذا التعقيب من الإمام الشهيد.

(٢) هو الداعية الإسلامي المعروف رحمه الله صاحب (فقه السيرة) و(خلق المسلم) وغيرها من الكتب التي تثقَّف عليها جمع غفير من الدعاة المعاصرين، ويعدُّ الشيخ الغزالي من أساتذة الشيخ القرضاوي الذين تركوا بصمات في حياته.

أبو الحسن النَّدْوي[١] : القرضاوي عالمٌ محقِّق، وهو من كبار العلماء والمربّين.

عبد العزيز بن باز[٢] : كتبه لها ثقلها وتأثيرُها في العالم الإسلامي.

مصطفى الزرقا[٣] : القرضاوي حجَّة العصر، وهو من نِعَمِ الله على المسلمين.

عبد الفتاح أبو غدة[٤] : القرضاوي فقيهنا ومرشدنا العلاَّمة.

آية الله محمد علي التَّسخيري[٥] : القرضاوي جوهرة لم تكتشف بعد كل أبعادها، إنه تاريخ يتبلور في رجل نذر نفسه للقضية، وعمل جاهداً على أن يبثَّ فيها وفي عروقها دماً جديداً.

القاضي حسين أحمد[٦] : القرضاوي مدرسة علمية فقهية ودعوية، يجب أن تستفيد الأمة من نبعها الإسلامي العذب.

---

(١) العلاَّمة الهندي المعروف رحمه الله، ورئيس ندوة العلماء بالهند، ومؤلف كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟ وغيرها من الكتب التي أثْرت الفكر الإسلامي.

(٢) أحد علماء المملكة العربية السعودية، ومفتيها العام، ومن العلماء البارزين الربانيين رحمه الله.

(٣) الفقيه الإسلامي المعروف، وصاحب سلسلة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وهو سوري الأصل رحمه الله.

(٤) هو العلاَّمة المرحوم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة المحقق المشهور، اشتهر بنشر تراث الإمام اللكنوي، وكان مراقباً عاماً للإخوان المسلمين في سورية.

(٥) أحد علماء الشيعة المرموقين، ويعد من معتدلي الشيعة، وله جهود طيبة في التقريب بين السنَّة والشيعة.

(٦) أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

محمد رجب البيومي[1]: القرضاوي.. باحث دقيق، وداعية صبور.

طه جابر العلواني[2]: القرضاوي فقيه الدعاة وداعية الفقهاء.

عبد السلام الهرّاس[3]: القرضاوي القيادة الحكيمة في مسيرة التأصيل والتجديد والتوحيد. ويعدُّ من أعظم ثمار دعوة الإمام الشهيد حسن البنا.

عبد الله عقيل العقيل[4]: القرضاوي رجل المرحلة وفقيه العصر.

عبد المجيد الزنداني[5]: القرضاوي عالم مجاهد.

عبد القادر العماري[6]: القرضاوي فقيه التيسير.

محمد عمر زبير[7]: القرضاوي حامل لواء التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة.

محمد فتحي عثمان[8]: القرضاوي الفقيه الداعية، البصير بالواقع المعيش.

---

(١) العلاّمة المفكّر الإسلامي المعروف، عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سابقاً، ورئيس تحرير مجلة الأزهر حالياً.

(٢) مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكة، ومحقق كتاب (المحصول في علم الأصول) للإمام الرازي.

(٣) أحد كبار علماء المغرب المعروفين، ودعاتها المخلصين.

(٤) الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي سابقاً.

(٥) داعية إسلامي معروف يمني الأصل، وأحد رموز العمل الإسلامي في اليمن.

(٦) نائب رئيس محكمة الاستئناف بالمحاكم الشرعية بدولة قطر سابقاً.

(٧) مدير جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية سابقاً.

(٨) مفكر إسلامي معروف.

عادل حسين[1]: القرضاوي فقيه الوسطية في عصرنا.

عبد الله بن بَيَّة[2]: القرضاوي إمام من أئمة المسلمين، وضمير الأمة.

راشد الغنوشي[3]: القرضاوي في كلمة واحدة: إمام مجدِّد، وقال: القرضاوي لسان الصدق الذي أماط اللثام عن منافقي تونس.

زغلول النجار[4]: القرضاوي: رجل تميَّز بالرقَّة والأدب في حزم الفقيه، وقد وهبه الله ذاكرة واعية، وذكاء فطرياً، وفراسة ربانية، وقدرة على الفتيا باستنارة ووعي، مما جعله داعية العصر وفقيهه بلا منازع.

توفيق الشاوي[5]: القرضاوي: رجل مدافع عن قيم الإسلام ومبادئه.

عدنان زرزور[6]: القرضاوي: المجدِّد الموفَّق الموفِّق.. فقيه العصر ومجتهده الأول. لقد جمع القرضاوي بين دقَّة الفقيه، وحماسة الداعية، وجرأة المجدد، وإقدام الإمام. لقد أقام القرضاوي دولة الإسلام في الفقه والاجتهاد.

---

(١) كاتب إسلامي معروف، وأحد رموز حزب (العمل) المصري رحمه الله.
(٢) وزير العدل والتعليم في موريتانية سابقاً، وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية.
(٣) رئيس حزب النهضة التونسي ومن قادة الحركة الإسلامية البارزين.
(٤) عالم جيولوجي معني بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم.
(٥) أستاذ القانون الدولي. وهو مفكر معروف.
(٦) أستاذ ورئيس قسم أصول الدين بكلية الشريعة ـ جامعة قطر، وهو سوري الأصل.

مانع الجهني[1]: القرضاوي: العالم الموسوعي، والفقيه المعاصر.

ياسر الزعاترة[2]: القرضاوي: من أشرف الرجال الذين عملوا لقضية فلسطين.

هيثم الخياط[3]: القرضاوي: فقيه الحنيفية السمحة.

عبد الله عمر نصيف[4]: القرضاوي: قمَّة في العطاء.

أحمد الريسوني[5]: القرضاوي: فقيه المقاصد.

عصام تليمة[6]: القرضاوي: لؤلؤة في عنق الأمة.

* * *

---

(١) الأمين العام للندوة العالمية للشباب المسلم بالسعودية.

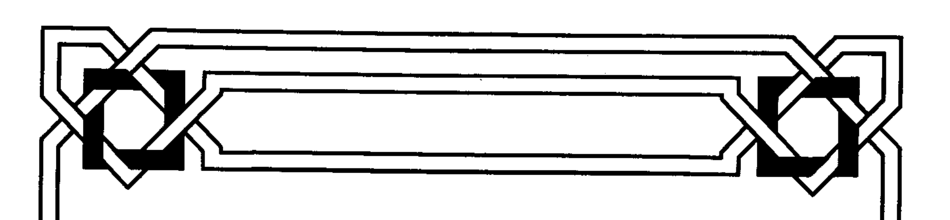
(٢) رئيس تحرير مجلة (فلسطين المسلمة).

(٣) عضو مجامع اللغة العربية بدمشق وبغداد وعمان والقاهرة وعليكرة.

(٤) مدير جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية سابقاً.

(٥) رئيس جماعة التوحيد والتجديد في المغرب، ومن أكثر العلماء الموجودين اهتماماً بفقه المقاصد تأصيلاً وتبويباً.

(٦) كاتب هذه السطور، ومدير مكتب الشيخ القرضاوي وسكرتيره الخاص.



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

- خصائص الكتابة العلمية عند القرضاوي
- عرض موجز لمعظم مؤلفاته
- عرض موسّع لبعض كتبه
- قائمة بمؤلفات الشيخ

الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

خصائص الكتابة العلمية عند القرضاوي

امتازت كتب القرضاوي بعدَّة ميزات مهمة، نعرِّج عليها بإيجاز، وهي:

الجمع بين الأصالة والمعاصرة:

فقد امتازت كتب الشيخ بأنها كتبٌ تعتمد على النص من المصدرين الأولين: الكتاب والسنَّة، ولا توجد قضيةٌ ناقشها، أو تناولها القرضاوي دون تدليلٍ عليها، بل اشتهر بأنه يُكثر من الاستدلال بالنصوص، فالقرضاوي تراثيٌّ في كتاباته، وليس معنى تراثيته أنه يغفل المعاصرة في كتابه، بل هو يعرض ما عنده من بضاعته العلمية، ناهلاً من التراث الأصيل ومن الثقافة المعاصرة، ليعرضه بأسلوب العصر، وبوسائل العصر، وأدواته.

التنوُّع والشمول:

كما امتاز القرضاوي بتعدُّد المجالات والميادين التي كتب فيها، حتى قال عنه العلماء: إنَّ القرضاوي لم يَدَع مجالاً ـ من مجالات الثقافة الدينية والعربية ـ إلاَّ وأسهم فيه بحظٍّ وافر، فتراه يكتب في الفقه والأصول، كما يكتب في القرآن والسنَّة وعلومهما، كما يكتب عن الاقتصاد والفكر

السياسي، وعن الحضارة والمعرفة، وعن التربية، والأدب، والتراجم، والثقافة، وعن الدعوة وترشيد الصحوة، كلُّ ذلك بنفس العمق المعهود فيه، دون سطحيةٍ أو سَفْسَطة، ولعلَّ نظرةً واحدة من القارئ على قائمة مؤلَّفاته يدرك جيداً ما أشير إليه هنا باختصارٍ شديد.

إنَّ موسوعية القرضاوي في الاطّلاع والكتابة، محلُّ إعجاب الكثير من العلماء، بل محلُّ تعجُّب، مما يجعلنا نقول عن القرضاوي: إنه أتعبَ مَنْ بعدَه. وهذا حق، فإنَّ البحث عن بديلٍ عن القرضاوي يضع كثيراً من الجيل القادم في مقارنةٍ الحكمُ فيها منتهٍ من بدايتها لصالحه، فإنَّ الخِلال والمواهب المتفرِّقة في كثيرٍ من العلماء، قد اجتمعت ـ جلُّها ـ في الرجل، وهذا لانجامله فيه، على ما في تراثه العلمي من أخطاء لدى فئةٍ من الناس، أو ردٍّ أو جدل، أو عدم قناعة كلية لكلِّ ما يقرِّره الرجل من رأي. ولكن يبقىٰ في نهاية الأمر القرضاوي الموسوعي، المتنوِّع في عطائه، بل الثرّ في عطائه.

الجمع بين العاطفة والعقلية:

كما امتازت كتب القرضاوي بأنها تُخاطب الوجدان فتثيره وتهزُّه هزًّا، وتخاطب العقل فتقنعه، ولم تعتمد على إثارة العواطف فقط، دون إقناعٍ للعقل، وهذا ما يفعله بعض الكتَّاب، إما أن يخاطب العاطفة، ويبتعدَ ابتعاداً كاملاً عن إقناع العقل، وهذا الأسلوب لا يتَّسم بالعلمية الكاملة، فالعواطف قد تخدع الإنسان في حكمه على الأمور، ومخاطبة العقل وحده دون إثارة العواطف والوجدان، يجعل الكتابة جافةً عقيمة، فالإنسان ليس عقلاً فقط، إنما مع العقل وجدانٌ وعاطفة، ولذا كان الشيخ الغزالي رحمه الله مصيباً كبد الحقيقة عندما عنون أحد كتبه: (ركائز الإيمان بين العقل والقلب).

والشيخ القرضاوي يعتمد على هزِّ المشاعر، وإثارتها، دون

تهييج، إنما الإثارة المنضبطة المعتدلة، فكم من كاتبٍ أو خطيب أثار العواطف، فوُجِّهت إلى غير رشد، فأفسدت أكثر ممّا أصلحت، وجعلت الإسلام موضع الاتّهام تارةً بالتطرُّف، وتارةً بالجمود والتشدُّد.

الصياغة الأدبية:

كما امتازت كتبه بأنها صيغت بلغةٍ سَلِسَةٍ عَذْبةٍ، تأسر لُبَّ القارئ، ولم تكن كتابةً جافة بعيدة عن ألوان الأدب العربي، ولا غرو فكاتبها ممَّن أسهم في الكتابة الأدبية، بديوانين هما: (نفحات ولفحات) و(المسلمون قادمون)، ورواية شعرية بعنوان (عالم وطاغية) تناول فيها الصراع الذي دار بين سعيد بن جبير والحجاج بن يوسف الثقفي، وله أيضاً رواية شعرية هي: (يوسف الصدِّيق)، فاتصاف كتابات القرضاوي بالأدبية لم تكن من فراغ، ولذا يكثر فيها الشعر، وتتَّسم من بدايتها إلى نهايتها بالصياغة الأدبيةالفائقة، والعبارات الرائقة.

وهذه الصفة (الصياغة الأدبية) لا تنفكُّ عن كتب الشيخ مطلقاً، سواء كانت كتابةً ثقافية أم فقهية، فحتى كتبه الفقهية، يكتبها بلغةٍ أدبية عالية، وقلَّ من يكتب في الفقه بلغة الأديب، ولا أعلمُ في العصر الحديث إلاَّ قلَّةً من الفقهاء الذين يكتبون الفقه بأسلوبٍ أدبي قوي، كالشيخ علي الطنطاوي، والشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ يوسف القرضاوي.

كتب مؤثِّرة:

كما امتازت كتب القرضاوي بأنها كتبٌ مؤثِّرة، على مستوى العالم العربي، والعالم الإسلامي على امتداده، فقد أثَّرت في الشباب والشابَّات، وفي الصغار والكبار، في عامة القرَّاء وخاصَّتهم.

تلمس هذا الأثر في ترجمة معظم كتبه إلى اللغات الحيَّة، وقد

عرفت مؤخَّراً أنَّ الإخوة في ماليزية ترجموا كتب الشيخ كلها إلى اللغة الملاوية، بل هناك سعيٌ دؤوب من أبناء الصحوة لترجمة كتبه إلى الأردية، والتركية، وغيرها من اللغات.

هذا من حيث انتشارُها، أمَّا من حيث تأثيرُها في سلوك أبناء الصحوة، فيعتمد أبناء الصحوة الإسلامية، على اختلاف جنسيَّاتهم على كُتب القرضاوي، رأيت ذلك بعيني في أبناء الأزهر ـ العجم قبل العرب ـ في مدينة البعوث، ونحن طلبة في الجامعة، فقد كنَّا نرىٰ كتب الغزالي والقرضاوي تملأ حقائبهم، ويقرؤونها ليل نهار، بل يحفظونها، وبمجرَّد ظهور كتاب جديد للقرضاوي تتلقَّفه الأيدي فورَ صدوره، بل يسألون إذا لم يجدوا جديداً، هل صَدَر شيءٌ جديد للشيخ؟.

وقد بلغ تأثير كتابات القرضاوي درجةً كبيرة، ترىٰ ذلك واضحاً في الفترة الأخيرة، بعد الاعتداء الآثم الإسرائيلي على أبناء فلسطين، وبدء انتفاضة الأقصى في أكتوبر سنة ٢٠٠٠م، وبمجرد خروج فتوىٰ الشيخ بمقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، تجاوب الناس مع فتواه، وبلغ تأثيرها أن أعلنت عدة شركات إغلاقها، بل أدَّى هذا التأثير إلى تهديد الشيخ بالقتل من دولة الكيان الصهيوني (إسرائيل) على لسان حاخامها (لاو)، وقد قال: إنَّ قسم الرصد في الحاخامية تابعَ مسيرة الشيخ الدعوية، وأنه منذ سنين وهو متتبِّعٌ لكتبه وخطبه، وأنه الأشد خطراً على إسرائيل، والأكثر تأثيراً في الأمة الإسلامية.

الجرأة والشجاعة الأدبية:

كما امتازت كتبه بالجرأة في العرض، وعدم اللف والدوران كما يقال، وعدم المداراة، فإن اقتنع الشيخ برأيٍ أعلن به ولا يبالي، أرضيَ العامة والخاصة أم سخطوا، فهو لا يرجو بما يكتب إلاَّ رضا الله، نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكِّيه على الله. فكم من عالمٍ كتم رأيه سنين

طويلة خوفاً من العامة أو الخاصة، ولكن القرضاوي تتَّسم كتبه بالشجاعة الأدبية. تجد هذا واضحاً في كل كتبه، وخاصةً ما كان منها متناولاً لقضيةٍ تمسُّ الأنظمة العربية، كإفتائه بعدم جواز الصلح مع إسرائيل، وعدم جواز زيارة الأقصى، بل إنَّ كتاباً من كتبه أثار ثائرة دولةٍ عربية إفريقية معروفة، لأنه تكلَّم فيه عن الانتهاكات التي تمارَس ضد المتديّنين فيها.

كما اتَّسمت بالجرأة في الرأي، من حيث الآراء الفقهية، ولا يبالي الشيخ بمن خالفوه ما دام مقتنعاً بما قال، مقتنعاً بما استدلَّ به من أدلة، وكم من هجومٍ هُوجم فيه الشيخ بسبب آرائه التي ذهب إليها، ولم يحرِّكه هجوم من هاجمه قِيدَ أنملةٍ عن رأيه، ولم يغيِّره، ليس صلفاً أو تعالياً إنما اقتناعاً بما ذهب إليه.



أسئلة للشيخ القرضاوي
حول كتبه وردّه عليها

بعد أن أتينا على ذكر خصائص الكتابة العلمية عند القرضاوي، أقدِّم للقارئ أجوبةً بقلم الشيخ على عددٍ من الأسئلة التي توجَّهتُ بها إليه برسالةٍ مكتوبة، وقد تفضَّل الشيخ بالإجابة عليها، وهذا نصُّ الرسالة وردُّ الشيخ عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

ففي هذه الآونة أقوم بكتابة كتابٍ عنكم، أتناول فيه جزءاً من الترجمة لكم، من حيث الصفات والأخلاق، وجزءًا من مسيرة حياتكم، ثم بعد ذلك يتناول الكتاب عدداً من كتبكم، وذلك بعرضها عرضاً موجزاً، لا بالطويل المملّ، ولا بالقصير المخلّ، كما قمت بعرض السياق التاريخي والفكري لهذه المؤلفات، وقد رأيت أن يسبق العرض الموجز لمؤلفاتكم بتناول خصائص الكتابة العلمية عند القرضاوي، وقد أنهيتها والحمد لله، ثم استوقفتني أسئلةٌ مهمة، أرىٰ فيها فائدةً لطلبة العلم والقارئ على حدٍّ سواء، أحببت أن تجيبوا فضيلتَكم عنها، وهذه أسئلتي إلى فضيلتكم:

الأول: نقف نحن الشباب ـ بل والشيوخ على حدٍّ سواء ـ موقف الذهول من كثرة مؤلفاتكم، فالملاحَظ أنك حاضرٌ دائماً، سواء في مجال الفضائيات، وفي الصحف والمجلات، كما أنك لا تردُّ دعوة داعٍ لمؤتمرٍ أو محاضرة، ومع هذا كلِّه نلاحظ كثرة مؤلفاتكم، فمتى تكتبونَ في ظل هذه الشواغل؟.

الثاني: هل تعتمدون في كتابتكم على من يساعدونكم في الكتابة، أو تستفيدون من التقنيات الحديثة في كتابتكم، بحيث توفِّر عليكم الجهد والوقت؟ وما الطريقة التي تتَّبعونها في الكتابة وجمع المادة العلمية؟.

الثالث: الملاحظ أن كتبكم منتقاة في موضوعاتها، حيث إنها تعالج كثيراً من قضايا العصر، وليست ببعيدةٍ عن حياة الناس، فكيف تختارون موضوعاتكم التي تتناولونها بالكتابة؟.

الرابع: من أهم ما وُصف به شيخنا العلاَّمة القرضاوي: أنه لا يقلِّد غيره، ولا يكرِّر نفسه. وفي الآونة الأخيرة لاحظ قارئوك أنَّ بعض أفكار ومقاطع كاملة في كتبك الجديدة مقتبسةٌ من كتبك السابقة، فهل أتى هذا الاقتباس من باب التكرار، أم أنَّ له سبباً علمياً؟ نودّ توضيح ذلك.

الخامس: لقد تجاوزت كتبكم المئة كتاب وأكثر، فهل يأتي الكمُّ على حساب الكيف، أم أنَّ فضيلتكم تراعون أن يسير الكيف والكم جنباً إلى جنب؟.

وختاماً: أسأل الله العليَّ القدير أن يمتِّع شيخنا بالصحة والعافية، وأن يمتِّعنا بعلمه، والمزيد من إصداراته، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته، اللهم آمين.

ابنكم ومحبّكم
عصام تليمة

وقد ردَّ الشيخ على أسئلتي بالتفصيل، فقال:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فردًّا على أسئلتك التي أثرتها، والتي كثيراً ما سُئلتُها من كثيرٍ من مريديَّ وتلامذتي، أجيب على أسئلتك ـ مستعيناً بالله تعالى ـ فأقول:

١ ـ متى أكتب؟

أكتب حين تلحُّ عليَّ فكرةٌ معيَّنة، تتزاحم معانيها في خاطري وتصبح كأنها قوةٌ آمرة لا أستطيع ردَّها.

أمَّا كيف تنشأ هذه الفكرة، فقد تثيرها حادثةٌ معينة أشهدها، أو تُحكىٰ لي، أو سؤالٌ يوجَّه إليّ، أو مقالٌ أقرؤه، أو كتابٌ أطالعه، أو مناقشةٌ أحضرها، أو نبأٌ مثير أسمعه أو أقرؤه، أو طلبٌ من جهةٍ معينة، أو من فردٍ تهمُّني، الاستجابة له.. كلُّ هذا قد يثير في نفسي خواطر عندي فجأة أشبه بما يسمَّى (الإلهام) كما يُلهم الشاعر والفنَّان.

المهم أنه عندما تصبح الفكرة في رأسي وتنضج، تلحُّ عليَّ أن أفرغها على الورق، فأشرع في الكتابة، فيما يتاح لي من الوقت، من ليلٍ أو نهار. والمعتاد أن أكتب بالنهار حتى منتصف الليل. ثم أنام وأستيقظ بعيد الفجر لأصلّي ثم أنام عادةً بعد الصلاة، حيث لا تكفيني الساعات القليلة التي أنامها قبل الفجر.

وأحياناً تسيطر عليَّ الأفكار وتتزاحم الخواطر، وتتوارد المعاني في الموضوع الذي أكتب فيه، فيصيبني الأرق، ويطير النوم من عيني، وأحاول أن أقتفي النوم، فيفرُّ منّي شارداً، فلا أجد بدًّا من القيام من الفراش، والنزول إلى المكتب لأسجِّل خواطري وأفكاري قبل أن تتفلَّت منّي. وهذا يتكرَّر كثيراً معي. ولا سيما في الأوقات التي أكون مشغولاً

فيها في موضوعاتٍ أريد أن أتمَّها وأفرغ منها.

وقد تمرُّ عليَّ بعض ليالٍ لا أنام فيها أكثر من ساعتين، وربما لا أنام فيها أبداً.

وأنا معتاد أن أكتب كل يوم في الصباح نحو ساعتين قبل أن أذهب إلى عملي الرسمي، وأذهب من أجل ذلك إلى عملي متأخِّراً، لأني منذ أذهب إلى المكتب تشغلني الهواتف والزيارات والرسميات فلا تدعُ لي فراغاً من الوقت.

وإذا وجدت فرصة للكتابة أثناء دوامي الرسمي لا أدعها. وقد يكون مراجعة بعض ما أكتب، أو تصحيح ما يكتبه الطابعون، أو الرد على سؤالٍ عاجل، أو نحو ذلك.

وفي أسفاري - وما أكثرها - أنتهز فراغاً أو فرصةً لأكتب، فأنا أشعر أنَّ المطلوب كثير، والوقت قليل، ومنذ سنين لم يعد لي مجالٌ للترويح والترفيه، وإن كان هذا غير محمود شرعاً ولا عرفاً ولا صحةً، ولكن هذا هو ما فرضه الواقع الذي أعيشه.

أكتب في المطارات، حين أنتقل وأنتظر ما بين طائرةٍ وأخرى، وأكتب في الطائرة وأنا مسافر، وخصوصاً عندما تكون الرحلة طويلة، وأكتب في الفندق كلَّما وجدت وقتاً لذلك.

ومنذ مدةٍ رآني أحد الأصدقاء المهتمّين بالفكر والثقافة، وأنا منهمكٌ في الكتابة في الطائرة المصرية الذاهبة من القاهرة إلى لندن، فسألني - وقد لمحتُ الدهشة في عينيه -: أتكتب في الطائرة؟ قلت: نعم. قال: وبدون مراجع؟ قلت: نعم بدون مراجع، معتمداً على المخزون العلمي في ذاكرتي، وليس كلُّ ما يُكتب يحتاج إلى مراجع. ولعلَّ مما يساعدني أني أحفظ القرآن، وأحفظ من الحديث والمأثور الكثير، وما يحتاج إلى نقلٍ معيَّن أو توثيق، أرجئه إلى ما بعد عودتي.

قال صديقي: الآن عرفتُ سرَّ هذا الإنتاج المكثَّف.

قلت: ولكن هناك شيءٌ لم تعرفه! قال: ما هو؟ قلت: شيءٌ اسمه (البَرَكة). وهي فضلٌ من الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده.

قال: صدقت.

قليلٌ من الموضوعات هو الذي أنجزه بسرعةٍ وفي مدةٍ قريبة، وهي الموضوعات التي أُكلَّف بالكتابةِ فيها من جهةٍ معينة، وفي مدةٍ محدودة، كما في كتابي (الحلال والحرام في الإسلام). وكذلك البحوث التي تُطلب مني للمشاركة بها في مؤتمرٍ من المؤتمرات العلمية، أو ندوةٍ من الندوات، مثل كتاب (شريعة الإسلام صالحةٌ للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان)، و(ثقافة داعية)، و(الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة)، وغيرها.

وكذلك الفتاوى التي تُطلب مني في قضايا عاجلة، لا يسعني تأخيرها.

٢ ـ كيف أكتب؟

وأما كيف أكتب، فأنا حين أختار موضوعاً للكتابة فيه، أقسمه مبدئيًا إلى محاور أو أبواب أو فصول، وقد أكرُّ على هذه المحاور بالزيادة أو بالحذف، أو الإدماج أو التحوير، حتى تستقرَّ تماماً في ذهني.

وأفتح لهذا الموضوع (ملفًّا) أضع فيه من النقول المختلفة كل ما أرى أنه يخدمه.

كما أضع فيه كل ما يتراءى لي من العناصر التفصيلية في كلِّ محورٍ من المحاور.

وكثيراً ما أحاضر في موضوع الكتاب أكثر من مرة، ليثرىٰ ويتَّسع

بالأسئلة والمناقشة حوله من الحضور، وخصوصاً بعد المحاضرة، وقد يترتَّب على هذه المناقشات إضافة عناصر جديدة، أو حذف عناصر قديمة، أو إعادة ترتيب الأفكار، أو نحو ذلك، ممَّا جرَّبتُه في أكثر من كتاب، إنه نافعٌ حقًّا.

وقد أشرعُ في الكتابة في أيِّ محورٍ منها حسبما يفتح عليّ، قد يكون ذلك في أول المحاور، وقد يكون في أوسطها، وقد يكون في آخرها. وما كتبتُه أضعه في الملف، حتى يكتمل.

وقد يبقى هذا الملف مفتوحاً عدة أشهر، وقد يظلُّ مفتوحاً عدة سنين حتى يأتي أوانه المقدور له عند الله. وقد ذكرت في مقدمة كتابي (أعداء الحل الإسلامي) وهو الجزء الرابع والأخير من سلسلة (حتمية الحل الإسلامي): أنَّ بعض فصوله كُتبت منذ نحو ثلاثين سنة، وأنَّ كثيراً ممَّن بيَّضوا هذه المسودات التي كتبتُها قديماً من زملائي بالمعهد الديني بالدوحة، قد انتقلوا إلى رحمة الله.

ذلك أني أفكِّر في الكتاب، وأبدأ في كتابة بعض فصوله، ثم أُشْغَل بأمرٍ آخر، ثم آخر وآخر، ويُنسىٰ الكتاب القديم إلى حين، قد يقصر وقد يطول كثيراً.

ومن المشكلات التي أعانيها في تواصل الكتابة في الموضوع الواحد: كثرة الأسفار التي قد تطول أحياناً. فكثيراً ما أشرع في الكتابة في موضوع محدَّد، وينطلق قلمي فيه، وتتوارد الخواطر، وتتزاحم المعاني، وتتهيَّأ المراجع، وتتوافر الهمَّة، وأمضي فيه شوطاً طيباً، ثم تأتيني سفرةٌ وأنا على هذه الحال، فتنقلني إلى جوٍّ آخر، وأفكار أخرى، وينقطع حبل تفكيري في الموضوع السابق، وقد تفتح لي هذه السفرة موضوعاً آخر، يشدُّني إليه شدًّا، ويفرض عليَّ نفسَه فرضاً، فيأخذني الموضوع الجديد، وأنسى الموضوع الآخر إلى ما شاء الله.

وعندي ملفاتٌ كثيرة يحويها مكتبي في بيتي في موضوعاتٍ شتّى، لم تستكمل بعد، لا أدري: أيقدَّر لي أن أكملها فيما بقي من عمري أم أدعها كما هي لمن بعدي؟ والغالب أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يتمِّم كلَّ ما يريد، فما كلُّ ما يتمنَّى المرء يدركه. ووصيَّتي لتلاميذي ومريديَّ أن يجتهدوا في الانتفاع بهذه الأشياء، ما استطاعوا، ولا يدعوها تضيع سدىً.

وممَّا يُتعِبُ أمثالي في الكتابة: أني أنا الذي أعدُّ كلَّ شيء بنفسي، أجهِّز المادة بنصوصها ونقولها وأدلتها، وأرقِّم آياتها، وأخرِّج أحاديثها، وأردُّ كلَّ شيءٍ إلى مرجعه بالجزء والصفحة.

ويقول العارفون من أصدقائي: إنَّ أمثالك في الغرب لهم عددٌ من السكرتارية الفنية والعلمية، التي تقوم بمعظم هذه الأمور، بحسبه هو أن يضع الأفكار الأساسية، والمحاور والعناصر، ثم عليهم هم أن يملؤوها وَفْقَ أفكاره ومنهجه! ومن لي ببعض ذلك؟.

الآن أصبح لي سكرتير خاص، ومع هذا لم أستطع أن أنتفع به كما ينبغي في الناحية العلمية، لأنَّ مكتبتي داخل بيتي، ولا يستطيع أن يدخلها أحدٌ غيري، ولهذا أفكِّر في بيتٍ آخر، تكون المكتبة فيه مستقلةً عن المنزل.

على كلِّ حال، أجد أنَّ هناك أموراً كثيرة يسَّرها الله لنا، ولهذا الجيل والأجيال اللاحقة من بعدنا، وهي سهولة (التصوير) للنقول من المصادر والكتب، التي كنت أجهد في نقلها في أوائل عهدي بالتأليف بخطِّ يدي، حتى يظهر أثر ذلك في أصابع يدي(١)، وذلك لسنين طويلة،

---

(١) ولا زال أثره باقياً في أصابع الشيخ، بل إنَّ أحد أساتذتنا حدَّثني عن دأب الشيخ وهمَّته قبل أن أراه، فقال واصفاً لأصبعه: تجد أثر القلم على أصبعه الأوسط، لكثرة ارتكاز القلم عليه. فلمَّا لقيتُ الشيخ لأول مرةٍ في حياتي، كان أول ما وقعتْ عليه عيني أصبع الشيخ، ووجدتُ ما أشار إليه أستاذنا.

حتى غدونا الآن نصوِّر الصفحات المطلوبة في لحظات، وتكون بين أيدينا نأخذ منها ما نشاء لما نريد.

ولو كنت أُحسن استخدام الحاسوب (الكمبيوتر) لازداد الأمر سهولةً، فقد أصبح عددٌ من المصادر الأصلية في الحديث والفقه والتفسير واللغة وغيرها مخزَّناً في هذا الجهاز العجيب، ويستطيع مَنْ يُحسنه أن يجد ما ينشده بلمسةٍ بيده. ولكن فات الآوان، وعسى أن يفيد منه أبناؤنا وتلاميذنا، وسيُضاعِف هذا أعمارَهم العلمية، يختصر لهم أوقاتاً وجهوداً كنَّا نبذلها قبلهم للحصول على معارف ومعلومات يجدونها دانية القطوف.

اقترح عليَّ عددٌ من الإخوة أن أستخدم (المسجِّل) لتدوين خواطري فيه، ثم أدع غيري يفرغها ويكتبها، وبذلك يوفِّر عليَّ عناء الكتابة.

ولكن الحق أقول: إنَّ إمساك القلم له سرٌّ خاص، كأنَّ بين سنّ القلم وعقل الكاتب إتفاقيةً أو تفاهماً لا نعرف كنهه، إني بمجرَّد أن أمسك بالقلم تتدفَّق عليَّ المعاني، وتفيض الخواطر، وتَتَسلسل الأفكار. ثم إنَّ ميزة الكتابة بالقلم: أني أكتب العبارة أحياناً ثم لا تروقني، فأشطبها، وأسطر غيرها بدلاً عنها.. ثم قد أتوقف قليلاً لأراجع بعض ما كتبت فأغيِّر وأبدِّل، وقد أضيف فقرةً أخرى، تطول أحياناً، ولذا يجد من يراجع مسوَّداتي أسهماً تشير إلى زياداتٍ وإضافات خلف الصفحة، قد تملأ الصفحة الخلفية، فكيف أفعل هذا في التسجيل الصوتي؟ ولهذا كثيراً ما دعوتُ الله جلَّ ثناؤه، وتباركت أسماؤه ـ ولا زلت أدعوه ـ أن يمدَّني بالعافية والقوة حتى لا يرتعش القلم في يدي، فهذه نعمةٌ عظيمةٌ أسأل الله تعالى ألاَّ يحرمني منها، وأن يتمَّها عليّ.

وممَّا يجعلني أؤثر الكتابة بالقلم على التسجيل بالصوت: أني أحبُّ أن أكتب العلم بعبارةٍ أدبية سهلة المأخذ، عذبة على المسامع، وهي التي

يسمُّونها (السهل الممتنع) وأحمد الله سبحانه أني وُفِّقتُ في هذا إلى حدٍّ كبير في عامة كتبي، حتى العلمية الأصيلة منها، لا يجد فيها قارئها وعورةَ المصطلحات، ولا خشونة العبارات، بل وصف النقاد كتبي بأنها تجمع بين دقة الفقيه، وإشراقة الأديب، وحرارة الداعية، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وأسأل الله تعالى أن يرزقنا شكر هذه النعمة.

ومثل هذا التدقيق والتأنُّق في اختيار العبارات والأساليب لا يتيسَّر في التسجيل الصوتي.

٣ ـ كيف أختار موضوعاتي:

أما كيف أختار الموضوعات التي أكتب فيها، فالواقع أني أحياناً لا أختار الموضوع، ولكن يُختار لي. فقد أُكلَّف بالكتابة في الموضوع من جهةٍ معينة، كما حدث في كتابي (الحلال والحرام في الإسلام).

وقد يُطلب مني الكتابة في موضوع معيَّن مشاركةً في ندوةٍ من الندوات أو مؤتمرٍ من المؤتمرات العلمية، أو نحو ذلك، فأكتب استجابةً لهذه الدعوة، ويكون من وراء ذلك كتابٌ يُنشر.

وذلك أمثلةٌ من عددٍ من كتبي، كانت في الأصل بحوثاً أعددتُها لمؤتمراتٍ وندوات.

مثل كتابي: (شريعة الإسلام صالحةٌ للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان) كان في الأصل بحثاً شاركتُ به في (ندوة التشريع الإسلامي) في ليبية، التي عقدت في مدينة البيضاء، تحت رعاية كلية الدراسات الإسلامية والعربية، وهي جزءٌ من الجامعة الليبية في ذلك الوقت.

ومثل كتابي: (ثقافة الداعية)، وكان أصله بحثاً شاركت به في (المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة) الذي عقد في المدينة المنورة برعاية الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٧هـ.

ومثل كتابي: (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية) الذي شـاركت به في (المؤتمر العالمي الأول للفقه الإسلامي) الذي عقد في الرياض، برعاية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ومثل كتابي: (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة)، وقد كان أصلاً بحثاً شاركت به في ندوةٍ بهذا العنوان في كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر.

ومثل كتابي: (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي)، فقد كان أصله بحثاً قُدِّم لندوةٍ اقتصادية إسلامية دعت إليها مجموعة (البركة).

وكذلك كتابي: (كيف نتعامل مع السنَّة النبوية؟) وقد كتبته استجابةً لطلب إخواننا في المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن، وكذلك لطلب مجمع بحوث الحضارة الإسلامية في عمَّان.

ثم كان كتاب (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) استجابةً لطلب الكثيرين بضرورة الكتابة عن التعامل مع القرآن، باعتباره هو الأسـاس والمصدر الأول، وإنما كان البدء بالسنَّة، لِما دخلها من التشويش وسوء الفهم، نتيجةً لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

ونحو ذلك: كتابي: (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) فقد كان في الأصل بحثاً طُلب مني للمؤتمر الأول للمحافظة على البيئة من منظورٍ إسـلامي، الذي أقيم في جُدَّة بالمملكة العربية السعودية، ثم وسَّـعتُه فأصبح كتاباً كاملاً في الموضوع، حينما شعرت بأنه أمسىٰ أمراً يشغل الناس في المشارق والمغارب، ويهدِّد العالم بأخطارٍ ماحقة، ولا بدَّ من بيان موقف الإسلام من هذا الأمر، من منطلقه الخاص، وَوَفْقَ أصوله وأدلته المُحْكَمة.

ويدخل في هذا الباب: كتب الفتاوىٰ، فهي في الأصل إجاباتٌ

على أسئلةٍ وُجِّهت إليَّ من أفرادٍ أو مؤسسات، وكانت في أصلها إجابات في برنامجي (هَذي الإسلام) الذي يبثُّه تلفزيون قطر منذ إنشائه إلى اليوم. ثم اتَّسعت لما هو أكثر من ذلك، يضمُّها كتابي (فتاوى معاصرة) الذي صدر منه ثلاثة أجزاء كبيرة إلى الآن.

وهناك كتبٌ أشعر بأنَّ المكتبة الإسلامية المعاصرة تشكو فراغاً فيها، أو ما كان فيها من كتاباتٍ لا يلبّي حاجة العصر.

وهذا هو الذي جعلني أكتب مبكِّراً عن (الإيمان والحياة) لشعوري بأنَّ هذا الجانب الذي عنيت به ـ وهو أثر الإيمان في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة ـ لم يُكتب فيه فيما أعلم. فبدأتُ أكتب فيه أولاً في صورة مقالات بعنوان (العقيدة والحياة) تنشرها مجلة (نور الإسلام) لسان حال علماء الدعوة والإرشاد بالأزهر، ثم صَدَرَت في كتاب.

وهو كذلك ما دفعني إلى كتابة (فقه الزكاة) وقد كان من المفترض أن يقدَّم رسالةً للأستاذية في كلية أصول الدين. ولكن الذي جعلني أختاره لرسالتي: إيماني بحاجة المكتبة الإسلامية إلى ملء هذا الفراغ الهائل، حيث إنه لا يوجد موضوعٌ يتناول بالتعميق والتأصيل والتحليل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، حتى شكا من ذلك بعض الاقتصاديين المسلمين المعروفين. كما رأيت الكثيرين يفهمون الزكاة فهماً مغلوطاً مقلوباً، على غير حقيقتها، ويحسبون أنها مجرَّد إحسان فردي، لا يُسهم في حلٍّ مشكلة الفقر، وغيرها من مشكلات المجتمع.

وهو ما دعاني إلى كتابة سلسلة (تيسير فقه السلوك) أو (الطريق إلى الله) حيث لمست الحاجة إلى عرض (التصوُّف الإسلامي) عرضاً جديداً بلغة العصر، وفي ضوء الكتاب والسنَّة، وبعيداً عن التجاوزات التي وقع فيهابعض الصوفية قديماً وحديثاً، وليس من المناسب أن تخلو المكتبة الإسلامية من هذا الجانب المهم والخطير.

وكثيرٌ من كتبي يندرج في هذا النوع، وهو: أنه يسدُّ ثغرةً في جانب، أرى أنَّ لديَّ ما أقوله فيه وَفْق منهجي، وذلك مثل: (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده)، و(الفتوى بين الانضباط والتسيُّب) و(ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) ومن هذا: (وجود الله)، و(حقيقة التوحيد)، و(الإيمان بالقدر)، و(العبادة في الإسلام)، و(مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام)..

وقد أكتب بعض الكتب لتُدرَّس في بعض مقرَّرات الجامعة، مثل كتابي: (الخصائص العامة للإسلام)، وكتابي: (المدخل لمعرفة الإسلام) فقد كانا يُدرَّسان في مقرَّر (الثقافة الإسلامية) بجامعة قطر. وكذلك كتابي (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) الذي درَّسته أنا شخصيًّا في أحد مقررات (أصول الفقه).

ومثل كتاب: (المدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية) الذي كان يُدرَّس أيضاً في جامعة قطر، ولا تزال بعض الكليات الإسلامية خارج قطر تدرِّسه.

وهناك كتبٌ يفرضها على الكاتب المشغول بهموم أمَّته: الموقف الفكري والثقافي والسياسي، الذي تعانيه الأمة، ويتطلَّب من الكاتب الملتزم أن يُدلي بدلوه في تصحيح المفاهيم، وتصويب الأغلاط أو المغالطات، وترشيد المسيرة.

وهذا ما دعاني إلى كتابة سلسلة (حتمية الحل الإسلامي). فحينما تعالت الصيحات بـ(حتمية الحل الاشتراكي) واختلطت النزعة القومية بالفكرة الماركسية، وظهر (الميثاق) في مصر الذي غلا فيه بعضهم فسمَّاه (قرآن الثورة). كان لا بدَّ لمثلي أن يقف لينادي بـ(حتمية الحل الإسلامي) وإن كنت لا أؤمن بفكرة الحتمية التاريخية، كما يصوِّرها الماركسيون، ولكن قلتها من باب (المشاكلة) كما يقول علماء البلاغة العربية.

وعندما ظهرت بوادر الصحوة الإسلامية في أوائل السبعينيات، وبدأت تنمو وتكبر وتتَّسع في المشرق والمغرب، مشوبةً ببعض الأخطاء أو الانحرافات، التي قد تشوِّه وجهها، أو تعوِّق سيرها، كان لا بدَّ من الكتابة في (ترشيد الصحوة)، وظهر لي في ذلك عدَّة كتب: (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرُّف)، (الصحوة وهموم الوطن العربي والإسلامي)، (الصحوة بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم)، (من أجل صحوةٍ راشدة تجدِّد الدين وتنهض بالدنيا)، (أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة)، (أين الخلل؟)، (في فقه الأولويات)... إلخ.

وهناك موضوعات يختار المؤلف الكتابة فيها نزولاً على رغبة إخوانه وأصدقائه القريبين منه، كما في سلسلة (نحو وحدةٍ فكرية للعاملين للإسلام) وهي كتبٌ تتعرَّض لموضوعاتٍ دعوية وفكرية تدور حول (الأصول العشرين) للإمام الشهيد حسن البنّا رحمه الله.

فقد بدأتُ الكتابة فيها بطلبٍ من بعض إخواني الذين عرفوا أنَّ لديَّ مفاهيم وأفكاراً اعتبروها مهمَّةً حول هذه الأصول، كما إني حاضرتُ فيها في الأردن سنة ١٩٦٦م، كما ألقيتُ فيها دروساً منتظمةً في قطر، سجِّلت على أشرطة الكاسيت منذ سنين. فلا غَرْوَ أن أصدرتُ أربعة أجزاء في هذا المجال، ولا زلت أرجو من الله أن يوفِّقني لإتمامها.

وهناك موضوعات يفرضها واجب الوفاء للمكتوب عنهم، سواء كانوا أمواتاً، كما فعلتُ ذلك في السنوات الأخيرة في وداع الرجال الكبار الذين رحلوا عن عالمنا، أمثال الأستاذ عبد الحليم أبي شقة صاحب كتاب (تحرير المرأة في عصر الرسالة)، والشيخ ابن باز، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ جاد الحق، والشيخ أبي الحسن الندوي، وأمثالهم[١]. أم كانوا أحياء، مثل الشيخ محمد

---

(١) والأستاذ عادل حسين، والدكتور محمد قطبة رحمهما الله، فقد ماتا في أسبوعٍ=

الغزالي، الذي كتبتُ عنه في حياته كتابي: (الشيخ الغزالي كما عرفته) خلال نصف قرن من الزمان، فقد رأيت أنَّ الناس في بلادنا ولا سيما بين الإسلاميين، لا يكتبون عن عظماء الرجال إلاَّ بعد وفاتهم. وهذا ليس سليماً، فمن حقِّ هؤلاء الكبار أن يعرف الناسُ أقدارَهم وهم أحياء، ليقتدوا بهم، ويقتبسوا منهم.

وكذلك كتبت عن الشيخ النَّدْوي في حياته، عن الفكر الدعوي وركائزه عنده، ثم أتممت الكتابة عنه بعد رحيله (أبو الحسن الندوي كما عرفتُه).

وهناك كتبٌ تفرضها المناسبة التاريخية، مثل كتاب (التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنّا) فقد كُتب بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على استشهاد الإمام حسن البنّا.

ومثل ذلك: كتاب (الإخوان المسلمون: سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد) بمناسبة مرور سبعين عاماً على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين، كبرىٰ الحركات الإسلامية الحديثة، وما ثار حولها من لَغَطٍ خاض فيه مَنْ يعلم ومَنْ لا يعلم، ومن يريد أن يعرف الحقيقة، ومن يريد أن يزيِّفها ويغيِّبها، ويشيع الباطل. فرأيتُ من واجبي ومسؤوليتي أن أقول رأيي، وإن لم يعد لي وضعٌ تنظيميٌّ في جماعة الإخوان.

ومثل ذلك: انقضاء قرن، واستقبال قرن جديد هو القرن الحادي والعشرون، وهو بداية (الألفية الثالثة) للميلاد كما يسمُّونها، واهتمام العالم كله بهذه المناسبة، وهنا يبرز سؤالٌ كبير: ما موقفنا نحن المسلمين من هذا الانتقال من قرنٍ إلى قرن، وماذا كسبنا وماذا خسرنا في القرن الماضي؟ وما التحدّيات التي تواجهنا في القرن الجديد؟ هذا ما دفعني

= واحد، وقد أثَّر موتهما في الشيخ كثيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إلى كتابة (أمَّتنا بين قرنين) وهو وَقْفةٌ إسلامية على رأس القرن الجديد.

ونحو ذلك: ما اقْتَضاه ظهور فكرة (العولمة) وما يثور حولها من جَدَلٍ في العالم كلّه، وما موقفنا نحن المسلمين منها: أنقبلها أم نرفضها؟ أم نأخذ منها وندع. وهنا كان كتابي: (المسلمون والعولمة).

وأيضاً كتابي: (الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه) كان بمناسبة مرور تسعمئة عام على ميلاد الغزالي، وقد كان المراد أن يكون مقالاً، فتوسَّع حتى أمسى كتاباً عن (حجَّة الإسلام) الذي ظلمه الظالمون، كما غلا فيه آخرون.

وهناك كتبٌ لها طابع (الردود) على مواقف وأفكار شائعة أو كتب لأشخاص معروفين، مثل كتابي: (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه) في الرد على جماعة العلمانيين عامة، وفي مصر خاصة، وقد عُقدت بيننا وبينهم مناظرةٌ تاريخية شهيرة حضرها من الجانب الإسلامي الشيخ محمد الغزالي وأنا، ومن الجانب العلماني الدكتور فؤاد زكريا، وذلك في (دار الحكمة) بالقاهرة، وهي مقرُّ نقابة الأطباء. وكان الصوت الإسلامي أعلى، وحجَّته أقوى، وإن حاول د. زكريا أن يشوِّش على ذلك بمقالاتٍ وسَفْسَطات لم تغنه شيئاً، ورأيت أن أبلور هذا الأمر في كتابي المذكور.

ومثل ذلك كتابي: (فوائد البنوك هي الربا الحرام) فقد كان ردًّا على فتوى مفتي مصر الدكتور محمد سيد طنطاوي ـ شيخ الأزهر الحالي ـ حول شهادات الاستثمار، والبنوك وفوائدها.

٤ ـ هل كرَّر القَرضاويُّ نفسَه؟

أمَّا عن ملاحظتك التي لاحظتَها في بعض كتبي، وهي اقتباس بعض صفحاتٍ من القديم فيما كتبتُه مؤخَّراً. فأقول: من فضل الله عليَّ أني لا أحبُّ أن أكرِّر نفسي، كما لا أحبُّ أن أقلِّد غيري.

ولا أحبُّ أن أكتب في موضوع إلاَّ إذا كان عندي شيءٌ جديد، أحبُّ أن أقوله فيه، أمَّا مجرَّد تكرار ما قاله الآخرون فهذا ليس من شأني.

وكثيراً ما تُطلَب مني الكتابة في موضوعاتٍ معيَّنة، فأعتذر، لأني لم يُفتح عليَّ بشيءٍ أضيفه عليها.

ومَنْ نظر إلى قائمة كتبي وجد كلَّ كتابٍ فيها أضاف شيئاً، ابتداءً من أول كتاب دخلت به حلبة التأليف، وهو (الحلال والحرام) الذي كان بشكله ومضمونه جديداً وأصيلاً، واستقبله المسلمون في العالم الإسلامي بقَبولٍ حسن، وتُرجم إلى لغاتٍ لا أستطيع حصرها، وقامت حوله دراسات، وقُدِّمت أطروحات.

أمَّا ما ذكره من يسأل عن بعض ما يلحظه من تكرارٍ في بعض مؤلَّفاتي الأخيرة، فأودُّ أن أردَّه إلى أسبابه.

فمن هذا التكرار ما هو مقصودٌ بالفعل، مثل أخذ بعض فصول من كتبٍ معيَّنة، لإصدارها في رسائل صغيرة الحجم، رخيصة الثمن، ميسَّرة للقراءة، ولا سيما أننا في عصرٍ يسمِّيه بعض الناس (عصر الساندوتش) وهذا ينطبق على الغذاء المادّي، والغذاء الثقافي.

لهذا اقترحَ عليَّ بعض الإخوة من الدعاة المتمرِّسين أن أقتبس بعض الفصول المهمّة من كتبي الكبيرة نسبيًّا، لأُخرجها في رسائل، فاستجبتُ لهم، وأخذت مثلاً فصلاً من كتابي: (بيّنات الحل الإسلامي) لأخرجه في رسالةٍ من (رسائل ترشيد الصحوة) وهو فصل (الدين والعلم).

وكذلك أخذت أكثر من فصل من كتابي: (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) ليصدر في رسائل، مثل: (جريمة الردَّة وعقوبة المرتدّ)، (مركز المرأة في الحياة الإسلامية)، كما أخذت من كتابي فتاوىٰ معاصرة (فتاوى للمرأة المسلمة)، و(النقاب للمرأة بين القول ببدعيَّته والقول بوجوبه). ونحو ذلك.

ومن التكرار: ما تَقْتضيه ضرورة الموضوع المكتوب فيه، فقد يكتب الإنسان في موضوعٍ معيَّن، ضمن جزءٍ من كتاب، ثم يحاول أن يفرد كتاباً كاملاً في الموضوع ذاته، فلا حرج أن يستفيد المؤلف من كتاباته السابقة في الموضوع، ويضمُّها إلى كتابه الجديد.

مثال ذلك: أني كتبت عن فهم القرآن وتفسيره في كتابي: (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنَّة).

ثم صنَّفت بعد ذلك كتابي: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) وفيه عُدْتُ إلى الكتابة عن تفسير القرآن بتوسُّعٍ وتفصيل وتعميق، فلم يكن يسعني إلاَّ أن أستفيد ممَّا كتبتُه من قبل.

ومثل ذلك حين كتبت عن (المدخل إلى معرفة الإسلام) فذكرت فيه عن (العقيدة وخصائصها)، واستفدتُ ممَّا كتبته قديماً في كتابي: (الإيمان والحياة). وكذلك حين كتبت عن العبادة، استفدت ممَّا كتبت في (العبادة في الإسلام).

وهناك فقراتٌ معيَّنة أقتبسها من بعض كتبي، لأضعها في موضعها من كتابٍ جديد، مشيراً إلى الكتاب الذي اقتبستُ منه، وهذا يفعله كلُّ المؤلِّفين، وإذا كان المؤلِّف يأخذ من كتب غيره ولا حَرَج عليه، فلماذا لا يأخذ مِن كُتب نفسه؟.

٥ ـ هل يأتي الكم على حساب الكيف؟

أمَّا عن سؤالك: هل يأتي الكم على حساب الكيف؟.

فلم يكن همِّي في أيِّ مرحلةٍ من حياتي ـ ولله الفضل والمنَّة ـ العناية بـ(الكم) ولو على حساب (الكيف)، أو بـ(الشكل) على حساب (الجوهر).

وفي كتابي: (في فقه الأولويات) جعلتُ من الأولويات الأساسية

التي يجب أن تُراعىٰ: (أولوية الكيف على الكم).

وفي كتابي الحالي الذي أُعدُّه عن ترشيد الصحوة الإسلامية المعاصرة، والذي سمَّيته (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد): فصل ـ بل هو الفصل الأول ـ بعنوان: (الصحوة من الشكل إلى الجوهر).

وهذا ما عُنيتُ به طوال عمري التأليفي، والذين يعرفونني عن كثب، يعلمون أني أتعب في إعداد ما أصنِّفه من كتب، وأتحرَّى وأدقِّق في إخراجها إلى حدٍّ سمَّاه بعض إخواني بـ(الوسوسة). وقد يظلُّ الكتاب عندي سنين طويلة، ولا أُخرجه إلى الطباعة والنشر، لأني غير راضٍ عنه.

وعندي ملفَّاتٌ مفتوحة لبعض الكتب المستقبلية، من سنين طويلة، أضع فيها كلَّ ما يصلح لها من أفكار وتأمُّلات أدوِّنها، ومن نقولٍ تخدمها.

وأنا أضع أمام القارئ آخر دفعةٍ صدرت من كتبي خلال السنة الأخيرة، لينظر فيها ويحكم بالقسط: أهي كمٌّ بلا كيف؟ أَفيها أصيلٌ وجديد أم لا؟ وهي:

١ ـ أمَّتُنا بين قرنين.

٢ ـ ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق.

٣ ـ رعاية البيئة في شريعة الإسلام.

٤ ـ الجزء الثالث من (فتاوى معاصرة).

٥ ـ الجزء الرابع من (حتمية الحل الإسلامي) بعنوان: (أعداء الحل الإسلامي).

٦ ـ الإيمان بالقدر.

٧ ـ حاجة البشرية إلى رسالتنا الحضارية.

٨ ـ المسلمون والعَوْلَمَة.

وقد تلقَّاها المسلمون بالقَبول والثناء، حتى إنَّ دار الشروق ناشرة كتابي: (أمَّتنا بين قرنين)، و(ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) أبلغتني أنَّ المسلمين في إندونيسية طلبوا الإذن بترجمة الكتابين إلى الإندونيسيّة ونشرهما هناك.

وأحسب أنَّ الذين أثاروا قضية (الكم) لم يقرؤوا كتبي، ولكنهم استكثروا على رجلٍ مثلي مشغول في المؤتمرات والندوات والبرامج الفضائية: أن يكون له مثل هذا الإنتاج الوفير.

وهو سؤالٌ طالما وُجِّه إليَّ من قديم، في أكثر من بلدٍ وأكثر من سائل: كيف استطعتَ أن تجمع بين المشاركات الملحوظة في أنشطةٍ شتَّى وبين التأليف العلمي الغزير، المُعْتَرَف به في أنحاء العالم، والذي تُرجم معظمه إلى عددٍ من اللغات؟.

وقد قلت لهم، ولا زلت أقول:

أولاً ـ إنَّ هذا من فضل الله عليَّ، وتوفيقه لي، أن رزقني البركة في وقتي. ولا أقول إلاّ ما قال سيّدنا شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وما قاله الشاعر قديماً:

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُه

فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وثانياً ـ أني أعمل نحو (١٥) خمس عشرة ساعةً تقريباً يومياً، ولا أكاد آخذ لنفسي إجازة، لا في صيفٍ ولا شتاء، وأكتب في كلِّ مكان، وفي كلِّ حين، وعلى أية حال.

أكتب في المطارات وأنا أنتظر الطائرة، وأكتب وأنا في الطائرة،

وأكتب وأنا في الفندق، كما أكتب أكثر ما أكتب في منزلي أو في صَوْمعتي.

وقد ذكرت لك أنَّ أحد الإخوة الأصدقاء ـ المعنيين بالفكر والثقافة ـ رآني يوماً في سفرٍ من القاهرة إلى لندن، ووجدني منهمكاً في الكتابة، فلحظتُ عليه الدهشة والاستغراب، وسألني: تكتب في الطائرة؟ قلت: نعم، عندي نحو أربع ساعات، هل أضيِّعها؟ قال: وكيف تكتب بلا مراجع؟.

قلت: ليس كلُّ ما يُكتب يحتاج إلى مراجع. هناك من الكتابة ما هو (تأمُّلات) مرجعها هو الفكر الإنساني، وهناك كتابةٌ من (المخزون الثقافي) للكاتب. وما فيها من نصوص ونُقول أكتبها من الذاكرة ـ ولا تزال بحمد الله تسعفني ـ ثم أوثِّقها بعد ذلك.

قال: وهذا ما لا يَقْدر عليه كلُّ الناس، وهو سرُّ الوفرة في إنتاجك، وهو من نِعَم الله تعالى عليك.

قلت: أقول: الحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنتهدي لولا أن هدانا الله. وأتغنّى بقول الشاعر:

لك الحمد مولانا على كلِّ نعمةٍ ومن جملة النعماء قَولي لك الحمد

* * *

عرض مختصر لمعظم مؤلفات الشيخ[1]

*** ١ ـ الحلال والحرام في الإسلام :**

في هذا الكتاب يتناول الشيخ معظم الأمور التي تهمُّ المسلم في أمور دينه، من تصحيحٍ لعقيدته، ومعرفةٍ بعبادته، وضبطٍ لمسيرة حياته وَفْق ما شرع الله، وقد حرص الشيخ على عرض ذلك كلّه بأسلوبٍ ميسَّر، يفهمه العامة والخاصة. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بتفصيلٍ في المبحث الآتي.

*** ٢ ـ فتاوى معاصرة :**

كتاب من ثلاثة مجلَّدات، تناول فيه الشيخ قضايا شغلت بال الناس، وهو يمثِّل بأجزائه الثلاثة مدرسةً فقهية، يتَّضح فيها منهج الشيخ في إفتائه للناس، وهي فتاوى فقهية طعَّمها الشيخ بروح الدعوة، فلم يفصل فيها بين الفقه والحياة، ولا بين الفقه والدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بتفصيلٍ في المبحث الآتي.

---

(١) عرضتُ في هذا المبحث لأكثر من خمسين كتاباً من أهم كتب الشيخ التي تزيد على المئة وعشرين وعرَّفتُ بها تعريفاً موجزاً، ثم عرضت في المبحث التالي للتعريف بشيءٍ من التفصيل لعشرةٍ من مؤلَّفات الشيخ حفظه الله ورعاه، ثمانية منها عرَّفت بها باختصار وهي التي أشرت إليها برمز * في هذا العرض المختصر، وكتابان لم أذكرهما في هذا المبحث وفصَّلت الحديث عنهما وهما : (المبشِّرات بانتصار الإسلام)، و(أمَّتنا بين قرنين).

٣ ـ تيسير الفقه: فقه الصيام:

في هذا الكتاب بيَّن الشيخ فريضةً من فرائض الإسلام، وهي الصوم، تلك الفريضة التي تشغل بال الناس شهراً كاملاً في العام، فبيَّن في هذا الكتاب: فلسفة الصوم، وأحكامه، ومالَ في كثيرٍ من هذه الأحكام إلى التيسير، ولا غَرْوَ أنْ مالَ الشيخ إلى التيسير في هذه الفريضة، فهي فريضةٌ قَرَن الله بها اليسر بعد بيان أحكامها، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* ٤ ـ الفقه الميسَّر المعاصر:

بيَّن الشيخ في هذا الكتاب ما يعنيه بالتيسير، وقد دعا فيه إلى تيسير الفقه للفهم، وتيسير الفقه للتطبيق والعمل، وبيَّن فيه أصول هذا التيسير، وهل هو فقهٌ هلامي، لا أصول له؟ أم أنه فقهٌ مبنيٌّ على قواعد مرعيّة عند علماء الشرع؟ وبيَّن مدى صلاح الرؤى والإلهام كأدلّةٍ من أدلّة الشرع. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بتفصيلٍ في المبحث الآتي.

٥ ـ الاجتهاد في الشريعة الإسلامية:

بيَّن فيه الشيخ الاجتهاد، وعدم خلوّ عصرٍ من عصور الإسلام منه، والاجتهاد المعاصر وما فيه من انضباطٍ وانفراط، والاجتهاد المنشود في عصرنا، ودعا فيه إلى الاجتهاد بنوعيه: الاجتهاد الانتقائي، وذلك بانتقاء رأيٍ من الآراء الفقهية، يرجِّحها الفقيه بما يلوح له من أدلّة. والاجتهاد الإنشائي: وذلك في المسائل التي لم تكن على عهد الفقهاء السابقين، والتي تطالب فقهاء العصر الحديث ببيان حكم الشرع فيها.

كما حذَّر الشيخ فيه من أدعياء التجديد، وليسوا من التجديد في شيء، وقال عنهم: إنهم مبدِّدون لا مجدِّدون، الذين يريدون أن يكون الإسلام شيئاً مائعاً، لا ثبات فيه.

٦ ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية :

هذا الكتاب كتبه الشيخ استجابةً لطلب كلية الشريعة بجامعة قطر، ليكون مدخلاً لطلبة كلية الشريعة يتعرَّفون من خلاله على خصائص الشريعة الإسلامية، من حيث ثباتُها وخلودُها، وإنسانيَّتُها، وصلاحيَّتُها للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان، وناقش فيه قضية تقنين الشريعة، وهل لها من جدوىٰ؟ أم أنه تباطؤ من حكام الدول العربية للتسويف في تطبيق الشريعة؟!

٧ ـ من فقه الدولة في الإسلام :

في هذا الكتاب وضَّح الشيخ أهمية الدولة في الإسلام، وخصائص هذه الدولة، فهي ليست دولةً دينية ثيوقراطية، تقوم على أساس الحكم الإلـٰهي، تلك الدولة التي يظنُّ كثيرٌ من الناس أنها أشبه بما كان من قبل في الديانات الأخرى، من تسلُّطٍ لرجال الدين، وإقحام رجال الدين فيما يعلمون وما لا يعلمون. وأنها دولةٌ من رسالتها حماية الضعفاء، وهي دولةٌ شوريّةٌ، وهي كذلك دولةٌ مدنية مرجعها الإسلام، كما بيَّن الشيخ رأي الإسلام في قضايا مهمة في فقه الدولة، من حيث الديمقراطية، ودخول المجلس النيابي للمسلمين في الدولة التي لا تلتزم بتطبيق الإسلام، ولغير المسلمين في دولةٍ مسلمة، وغيرها من الفتاوى التي تُعنىٰ بالجانب السياسي في الدولة الإسلامية.

٨ ـ الفتوىٰ بين الانضباط والتسيُّب :

في هذا الكتاب يتعرَّض الشيخ لقضيةٍ خطيرة، وهي قضية تَصَدّي عددٍ من الناس للفتوى، قبل أن يتأهَّلوا للإفتاء، والإفتاءُ منصبٌ له جلالته، وله خطورته، فقد كان السلف يتهيَّبون الفتوى، فلا بدَّ إذن لمن يتصدَّى للفتوى أن يتحلَّى بصفاتٍ علمية وخُلقية، فلا بدَّ من رصيدٍ علميٍّ هائل من فقه الكتاب والسنَّة، وممَّا كتبه علماؤنا القدامى من فتاوَى، وهي

رصيدٌ ضخم. ولابدَّ من صفاتٍ خُلقية، تتمثَّل في تحرُّر المفتي من العصبية للآراء، ولا بدَّ من الاعتدال، وعدم الخضوع للأهواء، إلى آخر ما ذكر الشيخ من ضوابط لا بدَّ للمفتي من الالتزام بها، حتى لا يكون من المتسيّبين في الفتوى. وحذَّر الشيخ من المزالق التي ينزلق فيها المفتين في العصر الحديث.

٩ ـ عوامل السَّعَة والمرونة في الشريعة الإسلامية:

ينفي الشيخ في هذا الكتاب مقولة: إنَّ الشريعة الإسلامية شريعةٌ جامدة، غير قابلة لمسايرة العصر بمستجدَّاته، التي تفاجئ الناس كلَّ يومٍ بجديد، فبيَّن الشيخ أنَّ في الشريعة الإسلامية عوامل تدلُّ على سعتها ومرونتها، بعد أن أكَّد أنَّ هناك ثوابت غير قابلة للمَسَاس بها، ولا لأن يقربها الإنسان بالتطوُّر والتغيُّر، ومن هذه العوامل: أدلة التشريع فيما لا نصَّ فيه، وقابلية نصوص الشريعة لتعدُّد الأفهام، وركَّز الشيخ على قاعدة: تغيُّر الفتوىٰ بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعرف، وكان في بعضها ناقلاً من كتاب (إعلام الموقعين) لابن القيِّم، بَيْدَ أنَّه أبدع في الاستدلال على القاعدة، بأدلةٍ واضحة من القرآن الكريم، وهذا ما لم نقرأه في كتب السابقين.

١٠ ـ الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد:

في هذا الكتاب بيَّن الشيخ ثراء الفقه الإسلامي، ومدىٰ صلاحيَّته للعطاء على مرِّ العصور، وليس معنى أنه يعتمد على نصوصٍ وآراء تراثية، أن يكون غير قابل للتجديد، وبيَّن كيف يُجَدَّدُ الفقه، وذلك بأن يقارن بين المذاهب الإسلامية، فيما أفرزته من آراء، ولابـدَّ من المقارنة بين الفقه والقانون، ليتبيَّن للناس مدىٰ تفوُّق الفقه الإسلامي على القوانين الوضعية، وأنَّ معظم من درسوا هذه القوانين يُبدون انبهارهم بالفقه الإسلامي، بعد الاطلاع على كنوزه. وبيَّن الشيخ أنَّ حياة الفقه تكون بتطبيقه لا بمجرَّد

وضعه في الكتب، لذا كان مجال (الأحوال الشخصية) أخصب الموضوعات ثراء في الفقه الإسلامي المعاصر، لأنها مطبَّقةٌ في معظم البلاد الإسلامية، ممَّا يزيدها ثراء.

١١ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط:

بيَّن الشيخ في هذا الكتاب أهمية الاجتهاد، وركَّز على المزالق التي يقع فيها عددٌ من العلماء فيما اجتهدوا فيه من أحكام، كما ناقش أحد مفكري الحركة الإسلامية في اجتهادٍ له وردَّ عليه، وهو الشهيد الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

١٢ ـ زواج المسيار:

تناول الشيخ في هذه الرسالة: قضية زواج المسيار، وصورتها: أن يتزوَّج الرجل بامرأةٍ ولا يستقرُّ معها في بيتٍ واحد، إنما يمرُّ عليها ليلةً أو ليلتين[١]، وقد أفتى الشيخ في برنامجه (الشريعة والحياة) بجوازه، فأثار عليه الناس، فكتب الشيخ هذه الرسالة، وبيَّن فيها أدلَّته في إباحته هذا اللون من الزواج، ونفىٰ عنه أن يكون كزواج المتعة، وإن كان الشيخ لا يحبِّذ هذا الزواج، إلاَّ أنه يحلُّ لنا بعض مشكلات العانسات.

١٣ ـ الضوابط الشرعية لبناء المساجد:

بطلبٍ من مؤتمر المساجد المنعقد في المملكة العربية السعودية، كتب الشيخ هذا البحث، الذي بيَّن فيه ما ينبغي أن يُراعىٰ عند بناء المساجد، من تزيينها وتشييدها، وأنه لا بدَّ أن يسبق البناء نيّةٌ خالصة، وما يُشترط في بناء المساجد من الإتقان والمتانة.

---

(١) هذا اللون من الزواج يسمِّيه بعض الناس ـ من باب السخرية ـ: زواج الترانزيت، تشبيهاً برحلات الطيران، التي ربما يضطرُّ الإنسان فيها أن ينزل إلى بلدةٍ لساعة أو ساعتين، مضطرًا لذلك.

١٤ ـ الغناء والموسيقى في ضوء الكتاب والسنَّـة :

كتب الشيخ هذا البحث بناء على رغبة قناة (اقرأ) الإسلامية، وبيَّن فيه الشيخ أدلَّة المحرِّمين للغناء والموسيقى، ثم ناقش أدلة المحرِّمين، وساق بعدها أدلة المبيحين، من الكتاب والسنَّة، ثم من مقاصد الشريعة، وبيَّن الشيخ أنه لا يقصد بالغناء هذا الغناء الماجن، الذي نشاهده على القنوات الفضائية العربية وغيرها، والذي غدا رقصاً لا غناء، وختم بحثه بكلمةٍ مهمة وهي نداء للمختلفين في القضايا الفقهية، بعدم تجريح أيّ فريق للآخر، فلا إنكار في المسائل الاجتهادية.

* ١٥ ـ فقه الزكاة :

هذا الكتاب كان في الأصل رسالة الدكتوراه التي حالت الظروف بين الشيخ ومناقشتها، وقد تناول الشيخ فيه فريضة الزكاة، بعد أن صار مفهومها سطحيًّا في فكر كثيرٍ من المتديّنين، فبيَّن الشيخ فيه فلسفة الإسلام في الزكاة، ودور الدولة فيها، ومصارف الزكاة، وفيمَ تجب الزكاة، وعلى مَنْ تجب؟. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بتفصيلٍ في المبحث الآتي.

١٦ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام :

قديماً قال العرب: إذا قال الفقر: إني ذاهبٌ إلى بلد، قال له الكفر: خُذْني معك، والإسلام يحارب الفقر ويقضي عليه، وللإسلام في ذلك عدة وسائل منها: الزكاة، والعمل، وكفالة الأقارب ذويهم من أهل العوز، إلى آخر ما أنشأه الإسلام من تعاليم، وفي هذا الكتاب فصَّل الشيخ القرضاوي: كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر؟.

١٧ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء :

قامت حملةٌ شعواء على المصارف الإسلامية التي أصبحت بديلاً

شرعيًا عن البنوك الربوية، ودار جَدَلٌ كبير حول مسألة بيع المرابحة للآمر بالشراء، والتي صورتها: أن يطلب طبيبٌ ـ مثلاً ـ جهازاً طبيًا، ويذهب إلى المصرف ويطلب منه الجهاز، فما الحكم إذا جلب له المصرف الجهاز وباعه له بيع مرابحة، وما مدى إلزام المصرف له بالشراء، وهل للمشتري هنا التراجع عن السلعة بعد جلب المصرف لها، وما حكم هذه المعاملة بدايةً؟ كل هذه الأسئلة أجاب عنها الشيخ متبنّياً الرأي المبيح لهذه العملية، رادّاً على شبهات وأدلة المانعين.

١٨ ـ فوائد البنوك هي الربا الحرام:

عندما أصدر الدكتور محمد سيد طنطاوي فتواه الشهيرة بإباحة شهادات الاستثمار، وفوائد البنوك الربوية، كتب الشيخ القرضاوي كتابه هذا ردًّا على الشيخ طنطاوي خاصَّةً، والمبيحين لفوائد البنوك عامة، وقد دلَّل الشيخ على حرمة فوائد البنوك من القرآن والسنَّة، بل ومن إجماع المؤسسات العلمية، والمجامع الفقهية المعتبرة لدى الأمة الإسلامية، ولدى علمائها.

١٩ ـ دور القِيَم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي:

من أهم خصائص الاقتصاد الإسلامي أنه: اقتصادٌ ربّانيٌّ، واقتصاد أخلاقي، فهو اقتصاد رباني، يهمُّه في بادئ الأمر ومنتهاه أن يكون موافقاً لأوامر الله وشرعه، واقتصاد أخلاقي يرتكز على أخلاقيات الإسلام، وهذا الجانب هو الذي ركَّز عليه الشيخ في حديثه عن الاقتصاد الإسلامي، من حيث الإنتاج أو الاستهلاك أو التوزيع، فالأخلاقية خصيصةٌ لا تنفكُّ عنه في كل هذه المجالات.

٢٠ ـ الصبر في القرآن:

وهذا كتابٌ تناول فيه الشيخ لوناً من التفسير لكتاب الله، يسمَّى

بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وفيه يتناول موضوعاً يجمع فيه كل الآيات المتعلِّقة به في كتاب الله، ويشرحها ويربط بين متناثرها، وقد بدأ الشيخ هذه السلسلة بموضوع (الصبر في القرآن) ويقول الشيخ عن هذا العنوان خاصةً: بدأتُ بالصبر ربما لأني كنت من أهل الابتلاء، ولكن نعم الله عليَّ أكثر من ابتلاءاته، فكان ينبغي عليَّ أن أبدأ بالشكر.

وقد تناول الشيخ كتابه في الحديث عن الصبر وأهميته ومجالاته ونماذج من الصابرين.

٢١ ـ العقل والعلم في القرآن الكريم:

تناول الشيخ في هذا الكتاب مادة العقل والعلم في القرآن الكريم، وكيف كوَّن القرآن الكريم العقلية العلمية، وما مواصفات هذه العقلية كما بيَّنها القرآن الكريم، كما تناول مفردة العقل في القرآن، وما تعنيه هذه المفردة، وناقش قضية التفسير العلمي للقرآن الكريم، بعد أن عرض لآراء المانعين والمؤيِّدين.

٢٢ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟:

بعد أن كتب الشيخ كتابه: كيف نتعامل مع السنَّة النبوية، أحسَّ بأهمية أن يكتب كتاباً عن كيفية التعامل مع القرآن الكريم؟ وقد بدأ الشيخ كتابه ببيان أهمية وعِظم هذا الكتاب، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبيَّن خصائص هذا الكتاب، وواجبنا نحوه من حفظه وتلاوته، وفهمه وتدبُّره. ثم بيَّن كيف نفهم هذا القرآن؟ ووضع لذلك عدّة قواعد مهمة، وقد أوضح هذه القواعد وجلاها بأمثلةٍ عديدة.

*** ٢٣ ـ كيف نتعامل مع السنَّة النبوية؟**

بعد أن كتب الشيخ الغزالي كتابه (السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) وأثار ما أثار من ضجَّة، طُلِبَ من الشيخ القرضاوي أن يكتب

كتاباً يعالج هذا الموضوع، وهو موضوع كيف نفهم السنَّة ونتعامل معها؟ وقد أوضح الشيخ في بداية كتابه: أهمية السنَّة المطهَّرة بالنسبة للمسلم عامَّةً، وللفقيه والداعية بخاصة، وكيف ينهل من معينها الذي لا يَنْضَب؟ كما تناول بالشرح والتفصيل كيفية التعامل مع السنَّة النبوية المطهَّرة، حتى تُفهم على ما أراد الله ورسوله، بفهمٍ وسطيٍّ معتدل، ينفي عنها تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بشيءٍ من التفصيل في المبحث الآتي.

٢٤ ـ تفسير سورة الرعد:

تناول الشيخ سورة الرعد بالتفسير، تفسيراً تحليليًّا، وقد كان هذا التفسير على أشرطة كاسيت في بادئ الأمر، ثم فرَّغها الأستاذ محمود عوض، ليعمَّ بها النفع، وقد بدأ الشيخ بسورة الرعد ولم يبدأ بالفاتحة، لأنَّ عدداً من العلماء اقترح على الشيخ أن يكمل تفسير المنار، فقد وقف الشيخ رشيد رضا عند سورة يوسف، ولم ينشرح صدر الشيخ لذلك، لأسبابٍ ذكرها في مقدمة الكتاب، ولكنه طُلب منه أن يعقد درساً في التفسير، فأراد أن يبدأ من حيث انتهى العلاّمة الشيخ محمد رشيد رضا[1].

---

(١) ما فعله الشيخ القرضاوي، فعله من قبل الإمام الشهيد حسن البنا، فقد بدأ بسورة الرعد عندما تولَّى التفسير في مجلة (المنار) يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: قال لي الأستاذ حسن البنا عليه الرضوان: إنه تناقش مع الشيخ رشيد في إحدى القضايا الفقهية، واتَّسعت مسافة الخلاف بينهما، ولم يصلا إلى وفاق.

ثم رأيت الأستاذ البنا يصدر صحيفة الشهاب (هي المنار وليست الشهاب، وقد خانت شيخنا الغزالي ذاكرته في ذلك) ويبدأ فيها باب التفسير، فإذا هو يستفتح بسورة الرعد! قلت له: لِمَ هذا البدء؟ قال: من حيث انتهى الشيخ الكبير محمد رشيد رضا. =

وقد جمع الشيخ في تفسيره بين عدَّة خصائص منها: أنَّ تفسيره كان تفسيراً سلفيًّا، مستمدّاً أدلّته وكلامه من الكتاب والسنَّة وأقوال السلف، كما كان تفسيراً عصريّاً، يخاطب الناس بلغة العصر، وكان تفسيره خالياً من الإسرائيليّات، كما امتاز أيضاً بأنَّه عرضه بأسلوبٍ أدبيّ، كما هو المعتاد في كتابات الشيخ.

٢٥ ـ المدخل لدراسة السنَّة النبوية:

كتب الشيخ هذا الكتاب لطلبة كلية الشريعة، وقد تناول فيه تعريف السنَّة عند العلماء، على اختلاف تعريفهم لها، وبيَّن فيه كيف نتقن التعامل مع السنَّة النبوية من حيث فهمها، وقد أخذ الشيخ معظم مادة الكتاب من كتابه: (كيف نتعامل مع السنَّة النبوية؟).

٢٦ ـ المنتقىٰ من الترغيب والترهيب (جزءان):

من أشهر الكتب الحديثية التي صُنِّفت على هيئة أبواب، كتاب (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري، وقد قام الشيخ بانتقاء مجموعةٍ كبيرة من الكتاب، ولم يقف عند حدِّ الانتقاء، بل زيَّنه الشيخ بعدَّة تعليقات مهمَّة ومفيدة، مع تخريجه للأحاديث التي انتقاها، وقد اعتمد الشيخ على الأحاديث الصحيحة والحسنة، وحذف كلَّ حديثٍ أيقن ضعفه.

*** ٢٧ ـ السنَّة مصدراً للمعرفة والحضارة:**

هذا الكتاب هو الكتاب الثاني الذي كتبه الشيخ تلبيةً لدعوة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فقد كان الكتاب الأول: كيف نتعامل مع السنَّة

= قلت (أي الشيخ الغزالي) في نفسي: لا يعرف الرجال إلاَّ الرجال. انظر: (علل وأدوية) للإمام المرحوم الشيخ محمد الغزالي، ص١١١ طبعة مؤسسة دار العلوم بالدوحة. الطبعة الأولى، وص١٢٣ طبعة دار القلم بدمشق.

النبوية؟ وكتب هذا الكتاب ليبيِّن فيه أنَّ السنَّة قد حوت كثيراً من المعرفة المعاصرة، التي يظنُّ كثيرٌ من المثقَّفين أنَّ السنَّة لا علاقة لها بهذه العلوم. كما أنَّ السنَّة أسهبت في حديثها عن الحضارة. وقد بدأ الشيخ كتابه بفصلٍ عن بيان السنَّة التشريعية وغير التشريعية. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بشيءٍ من التفصيل في المبحث الآتي.

٢٨ ـ نحو موسوعةٍ للحديث النبوي:

هذه رسالةٌ صغيرة للشيخ بيَّن فيها منهجاً كتبه لأجل صنع موسوعةٍ للأحاديث النبوية، تصلح لمخاطبة إنسان العصر الحديث، الذي ما عادت تنفعه الثقافة المعروضة بالطريقة القديمة، فالسنَّة تحتاج إلى أن تُعرض بالوسائل العلمية الحديثة.

٢٩ ـ قطوف دانية من الكتاب والسنَّة:

شرح الشيخ في هذه الرسالة مراتب العمل، التي بيَّنها الإمام الشهيد حسن البنّا في رسائله، وهي تبيِّن أنَّ العمل في دعوة الإخوان المسلمين يتَّجه إلى عدة اتجاهات، في دعوةٍ تعنىٰ بالفرد المسلم، ثم الأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، فالأمَّة المسلمة، فالخلافة، ثم أستاذيّة العالم. فبيَّن الشيخ من الكتاب والسنَّة مراتب العمل والإصلاح التي تكلَّم عنها الإمام الشهيد.

٣٠ ـ الإيمان والحياة:

كتب الشيخ القرضاوي هذا الكتاب عَقِبَ هزيمة العرب أمام إسرائيل في عام ١٩٦٧م، ليبيِّن لهم أنَّ أزمة الأمة الإسلامية هي أزمة الإيمان بالله، وأننا انهزمنا يوم فرَّطنا في ديننا، ولن نعود لعزَّتنا ومجدنا إلاَّ إذا أرينا الله منَّا إيماناً صادقاً به.

وقد بيَّن الشيخ في هذا الكتاب مزايا العقيدة الإسلامية من حيث

الوضوح، والوسطية، وبيَّن أثر الإيمان في الفرد والمجتمع، وأنَّ المؤمن يجني ثمرة إيمانه في الدنيا قبل الآخرة، مصحِّحاً بذلك النظرة الخاطئة للإيمان، أنَّ الإيمان ليس له ثمرةٌ إلاَّ في الآخرة، أمَّا في الدنيا فلا ثمرة تُرجىٰ منه، ومن هذه الثمار: الكرامة، والعزَّة، والثبات، والأمل، والصبر، والسعادة، والحب، والإنتاج، والضمير الحيّ في قلب الإنسان المؤمن.

٣١ ـ وجود الله:

هذا الكتاب هو الجزء الأول من سلسلة (عقائد الإسلام) وقد بدأها الشيخ منذ فترة، وأخرج منها ثلاثة أجزاء، هذا هو الأول منها، وقد تناول فيه الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى، مبتعداً في كتاباته عن أسلوب الجدل والمنطق، وما ابتليت به بعض كتب العقيدة من أساليب الفلسفة، التي ضرَّت أكثر ما أفادت، فقد خاطب الشيخ في كتابه هذا العقل والقلب، مستشهداً بدليل الفطرة والوجود، والخَلق، إلى آخر الأدلة التي ساقها الشيخ للتدليل على وجود الله.

٣٢ ـ حقيقة التوحيد:

وهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة (عقائد الإسلام) وقد تناول فيه الشيخ قضية توحيد الله، مبيِّناً توحيد الربوبية، وتوحيد الإلـٰهية، وما يجنيه الموحِّد لله من ثمرات التوحيد، فالمسلم بتوحيده لله يتخلَّص من الأوهام والخرافات، ويتخلَّص من الذلَّة للبشر، إلى العزَّة بإيمانه بالله. وحذَّر الشيخ في الفصل الأخير من كتابه من عدة أمورٍ تتَّصل بالشرك، ينبغي للمسلم أن يحذرها.

٣٣ ـ موقف الإسلام من كفر اليهود والنصارى:

هذا الكتاب كتبه الشيخ ردًّا على عدة مقالات كتبتها كاتبةٌ سوريّة، تسمَّى (سراب الحافظ) كتبت مقالاتها تعارض الشيخ في حديثٍ له، بيَّن

فيه أنَّ حكم النصارى العَقَدي أنهم كفّار، فكتب الشيخ هذه الرسالة ردًّا عليها، وبياناً لبعض الناس الذين ظنُّوا أنَّ تسامحَ الإسلام ينافي أن نكفِّر اليهود والنصارى، وحذَّر فيه الشيخ من أمرٍ خطير يغزو المسلمين الآن في معتقداتهم، وهو: التشكيك في الثوابت التي لا تقبل الظن ولا التشكيك، فهي أمورٌ واضحة في ديننا، ومنها هذه القضية، قضيَّة كفر اليهود والنصارىٰ، وقد سَرَد الشيخ الأدلة من القرآن والسنَّة على كفر اليهود والنصارى.

٣٤ ـ الإيمان بالقَدَر:

وهذا هو الكتاب الثالث في سلسلة الشيخ (عقائد الإسلام)، وقد تناول فيه: الإيمان بالقدر، تلك القضية التي شغلت بال الفلاسفة والمتكلِّمين، وعلماء العقيدة الإسلامية، وقد تناول الشيخ هذه القضية في ضوء الكتاب والسنَّة، وفهم السلف الصالح لهذه القضية بعيداً عن جدليات الفلاسفة والمناطقة، فالقضية من أركان الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتشغل بال كثيرٍ من العوام والمثقفين على حدٍّ سواء.

٣٥ ـ الشفاعة:

جاءت رسالته هذه ردًّا على عدة مقالاتٍ كتبها الدكتور مصطفى محمود ينفي فيها شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، بل نال من السنَّة في مقالاته حيث نفىٰ أن نأخذ عقيدتنا من السنَّة، تلك الأحاديث التي وصلت إلينا عن طريق رجال، يخطئون ويصيبون، يتذكَّرون وينسون، ونسي الدكتور أنَّ هناك علماً في الإسلام يسمَّى (علم الجرح والتعديل) لا يهتمُّ إلاَّ بذكر تفاصيل الرواة، وتعديلهم وجرحهم.

بيَّن الشيخ في كتابه أنَّ شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ثابتةٌ بنصوص القرآن والسنَّة النبوية، وأنَّ الدكتور مصطفى محمود بنىٰ كلامه على نصوصٍ فهمها بالعقل دون تدبُّرٍ لمعانيها جيداً.

٣٦ ـ الحياة الربّانية والعلم:

وهذه سلسلةٌ أخرى من سلاسل الشيخ العلمية، وقد أراد بها أن يكتب عن التصوُّف أو الجانب الروحي في الإسلام، ولكن بالطريقة التي دعا إليها دائماً، وهي: تسليف التصوُّف، وتصويف السلفية، بمعنىٰ: أن يدخل الجانب الروحي في التصوف ليرطِّب ويلطِّف من جفاف علومه، ويسلِّف التصوُّف، وذلك بضبط التصوف بضابط الشرع، وبالتزامه بهدي الرسول ﷺ، وتنقيته من البدع والخرافات، وقد سمَّاها الشيخ (تيسير فقه السلوك، الطريق إلى الله) وقد تناول الشيخ في هذا الجزء: كيف نشأ روحيًا، وعلاقته بالتصوف ورجاله الأقدمين والمعاصرين، وبيَّن معنىٰ الربَّانية، ومدى حاجة الأمة إليها، والعلم الشرعي المطلوب لتحيا به الأمة حياةً ربَّانية.

٣٧ ـ النيَّة والإخلاص:

وهذا هو الجزء الثاني من سلسلة الشيخ (تيسير فقه السلوك، الطريق إلى الله) وقد تناول فيها الشيخ النيَّة والإخلاص، ومدى أثر النية على العمل، وحاجة الأمة للإخلاص، وحاجة الدعاة إلى الله خاصَّةً للإخلاص في العمل، وبيَّن البواعث التي تبعث على الإخلاص، والثمار التي يَجْنيها المخلصون، وما العوائق التي تحيل بين الإنسان وإخلاصه العمل لله؟.

٣٨ ـ التوكُّل:

وهذا هو الجزء الثالث من سلسلة (تيسير فقه السلوك، الطريق إلى الله)، وقد تناول فيه الشيخ: التوكُّل على الله، وأنه قضيةٌ عَقَديةٌ بالنسبة للإنسان المسلم، وينبغي ألاَّ ينفكَّ عنه، وضرب لذلك أمثلةً من حياة الأنبياء والمرسلين، وناقش قضيةً مهمة وهي: هل تركُ العلاج والتداوي

ينافي التوكُّل على الله؟ ثم بيَّن الثمار التي يَجْنيها الإنسان من توكُّله على الله، والبواعث على التوكُّل، والمعوِّقات التي تعوق الإنسان عن التوكل على الله عزَّ وجلّ.

٣٩ ـ التوبة إلى الله:

أمَّا الجزء الرابع من سلسلة(تيسير فقه السلوك، الطريق إلى الله) فعن التوبة، وقد بيَّن فيه الشيخ: مِمَّ يتوب الإنسان؟ وكيف يتوب، وما شروط قبول توبته، وهل يكفيه أن يعلن فقط أنه تاب، أم أنَّ هناك أموراً قد لا تُقبل توبته إلاَّ إذا نفَّذها؟ وما الثمار التي يَجْنيها التائبون إلى الله من جرَّاء توبتهم؟.

٤٠ ـ ثقافة الداعية:

هذا الكتاب في أصله بحثٌ قدَّمه الشيخ للمؤتمر الأول للدعوة والدعاة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد بيَّن فيه الشيخ أهمية الثقافة للداعية، وأنه مطلوبٌ منه عدة ثقافات حتى يكون متحصِّناً عند دعوته، مكتمل التكوين عند تعرُّضه للدعوة، فمطلوبٌ منه ثقافةٌ دينية من تفسير القرآن وعلومه، ومن السنَّة وعلومها، ومن الفقه وأصوله، والعقيدة وغيرها، ومطلوب أن يكون لديه ثقافة لغوية، فالإسلام دينٌ نزل كتابه ووردت سنة رسوله بالعربية، ولن يستوعبها إلاَّ من أتقن العربية، وليس ذلك معناه أن يكون ملمًّا بالعربية دون آدابها، ومطلوب منه أن يكون لديه الثقافة التاريخية والعلمية والإنسانية والواقعية.

٤١ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا:

وقد كتب الشيخ هذا الكتاب بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين، ومرور ثلاثين عاماً على استشهاد حسن البنا مؤسس الدعوة، وقد بيَّن الشيخ في هذا الكتاب: أهم ما امتاز به

الأستاذ البنا في التربية الإسلامية، من تربيةٍ متكاملةٍ وشاملة، وتربيةٍ إيجابية لأفراد دعوته، وبيَّن كيف جاهدت هذه الدعوة من أجل كلمة الحق. وضَرَب الشيخ عدة أمثلة أوضحت كل العناصر التي ذكرها في كتابه.

٤٢ ـ الإخوان المسلمون (٧٠) عاماً في الدعوة والتربية:

كتب الشيخ هذا الكتاب بمناسبة مرور سبعين عاماً على دعوة الإخوان المسلمين، ومرور خمسين عاماً على استشهاد مؤسِّسها الإمام حسن البنا، وقد بيَّن فيها أنَّ دعوة الإخوان دعوةٌ اكتملت مقوِّمات النجاح لها، وبيَّن خصائصَ هذه الدعوة من النظرة التكامليَّة، ومن التجميع والشمول التي يلمحها الدارس لهذه الجماعة، وبيَّن الشيخ ثمار هذه الدعوة، على مستوى الأفراد والمجتمع والدول، فهي لم تقف عند حد الكلام، والعطاء الفكري، دون عطاء حضاري ملموس، وأخيراً ردَّ الشيخ على الشبهات المثارة حول الإخوان، من حيث تَسْييسهم للدين، وتبنِّيهم للتصوُّف[1] كوسيلةٍ تربوية، وتأخُّر قيام الدولة التي يدعون إليها، وهل للإخوان مشروعٌ فكريٌّ وحضاري لبناء الأمة المسلمة؟ أم أنهم أناسٌ يتعاملون بالعشوائية دون تخطيط وتنظير لفكرهم؟ وما يثار حول عقيدة الإخوان المسلمين، من اتهامهم بأنها عقيدةٌ أشعرية، وأنَّ البنا كان مخطئاً في تصوُّره لرأي السلف في مسألة (الأسماء والصفات).

إنَّ كتاب الشيخ عن الإخوان المسلمين يعدُّ ـ كما قال كثيرٌ من المفكِّرين ـ كتاب القرن عن الإخوان المسلمين، من حيث الحديث المستفيض عن المؤسِّس وعن الجماعة على حدٍّ سواء، ولم يكن كغيره من الكتب التي كُتبت عن الدعوة ومؤسِّسها التي اهتمَّت أكثر ما اهتمَّت

---

(١) بيَّن الشيخ أنَّ الإخوان أخذوا من التصوُّف ما صحَّ منه، وتركوا ما كان فيه من بدع لم يقم عليها دليل، مثل تقديس الأتباع لشيخهم، وغيرها ممَّا لم يقم عليه دليلٌ من كتابٍ أو سنَّة.

بالجانب التاريخي، دون ذكرٍ للجانب الإصلاحي، كما انصبَّ كثيرٌ من هذه الكتب على جانب الإمام البنا دون تطرُّقٍ للجانب الفكري والفقهي للجماعة.

٤٣ ـ الرسول والعلم:

يعدُّ هذا الكتاب من الكتب المهمة التي كتبها الشيخ في السنَّة النبوية، فقد كتب الشيخ أكثر من كتاب في التعامل مع السنَّة، وفي هذا الكتاب يضرب نموذجاً لتناول السنَّة موضوعيًّا، وقد أخذ الشيخ على عاتقه في هذا الكتاب ألاَّ يستشهد بحديثٍ ضعيف، ووفَّى الشيخ بما وَعَد به القارئ فلم يخرج عن إطار الحديث الصحيح أو الحسن. وقد بيَّن في الكتاب كيف دعا رسول الله ﷺ إلى العلم، ومحو أميّة الأمة الكتابية والثقافية، بل دعا إلى تعلُّم اللغات أيضاً، ثم فصَّل الشيخ آداب وأخلاقيات العلم والمتعلِّم في ضوء سنَّة النبي ﷺ.

٤٤ ـ الوقت في حياة المسلم:

في هذا الكتاب بيَّن الشيخ أهمية الوقت، وكيف أهدر المسلمون هذه القيمة، وأصبحوا أمةً تهمل الاستفادة من وقتها، بل إنَّ آخر شيءٍ يفكِّرون فيه: الاهتمام بالوقت، ومعرفة قيمته. فبيَّن الشيخ كيف أقسمَ الله عزَّ وجلَّ بالليل والنهار والفجر والعصر، وكل هذه أجزاء من الزمن ليدلَّ المسلمين على أهمية الزمن، وبيَّن خصائص الزمن، وأنه لا يُعوَّض، ولا يعود إلى يوم القيامة، ثم بيَّن أنَّ المسلم الحق هو الذي يدرك قيمة الوقت، فما جعل الله أوقات الصلاة إلاَّ لتدلَّ المسلم على الانضباط في الوقت.

٤٥ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد:

كتب الشيخ هذا الكتاب بمناسبة العيد الألفي للأزهر الشريف، وقد

بدأ بالكلام عن ذكرياته في الأزهر، وجهده مع إخوانه الأزهريين في النهوض بالأزهر، وبيَّن رسالة الأزهر العالمية، وواجبه نحو أمة الإسلام في طول وعرض العالم الإسلامي، وما العوامل التي ينجح بها الأزهر، ثم ختم الكتاب بنقد بعض مناهج الأزهر التي تُدرَّس في رحابه.

*** ٤٦ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرُّف:**

بيَّن الشيخ في هذا الكتاب سِمات التطرُّف والتشدُّد في الرأي، وأسباب التطرُّف الديني، والعوامل الداخلية والخارجية، التي كانت سبباً لهذه الظاهرة، ولم يكتفِ ببيان الداء، بل بيَّن كيفية علاجه، فوضع عدة وسائل منها ما يخصُّ المجتمع، ومنها ما يخصُّ الدولة، ومنها ما يقع على كاهل الشباب المتديِّن نفسه، وختم كتابه بعدة نصائح أبوية للشباب، جديرةٌ بأن تُدرس وتُستوعب. وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب بشيءٍ من التفصيل في المبحث الآتي.

٤٧ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي:

كثيرةٌ هي هموم الوطن العربي والإسلامي، كما أنها جديرةٌ بأن يُشغل بها المسلم، وبخاصة من كان من أبناء الصحوة، فبدل أن يشتغل أبناء الصحوة بالجدل والخمول، والنقاش العقيم، ينبغي عليهم أن يُشغلوا بهموم هذه الأمة التي كثرت، فمنها: همُّ التخلُّف العلمي، بعد أن كانت أمة الإسلام الأولى لعدة قرون، وهناك همُّ الاستبداد السياسي، وهناك همُّ التفسُّخ الأخلاقي إلى آخر الهموم التي أصابت الأمة الإسلامية.

*** ٤٨ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم:**

بيَّن الشيخ في هذا الكتاب: كيف تختلف الأمة الإسلامية ولا تتفرَّق؟ فالاختلاف مشروع، ولكن التفرُّق مذموم، وبيَّن أنَّ الاختلاف

رحمةٌ وثروةٌ وَسَعَةٌ للأمة كلِّها، وبيَّن أنَّ لفقه الاختلاف دعائمَ فكرية ودعائمَ خلقيَّة، أسهب الشيخ في شرحها. وسيأتي الكلام عن هذا الكتاب بشيءٍ من التفصيل في المبحث الآتي.

٤٩ ـ من أجل صحوةٍ راشدة تُجدِّد الدين وتنهض بالدنيا:

هذا الكتاب كان في الأصل مقالات كتبها الشيخ في مناسباتٍ عدَّة، وكانت لها قصةٌ مع الشيخ، حيث إنه كتبها في وقتِ منعِهِ من العمل، وكانت هي المصدر الوحيد لرزقه، ويجدُ القارئ في المقالات روحَ التفاؤل عند الشيخ، والثبات على المنهج الذي ارتضاه لنفسه، وهو منهج الوسطية والاعتدال، كما كتب الشيخ فيه مبحثاً عن الاجتهاد.

٥٠ ـ أين الخلل؟

هذا الكتيّب في أصله كانت مقالات كتبها الشيخ في مجلة (الأمة)، والتي كانت وقفةً للأمة على مشارف بداية القرن الخامس عشر الهجري، وقد وقف الشيخ وقفةً نقدية، وركَّز في نقده الذاتي على الحركة الإسلامية، وما فيها من خلل، وكيف العلاج لهذا الخلل؟.

٥١ ـ نفحات ولفحات ـ ديوان شعر:

هذا هو ديوان الشيخ الشعري الأول، وقد جمعه الأستاذ حسني أدهم جرار، وقدَّم له بمقدمةٍ ترجم فيها للشيخ. وشعرُ الشيخ فيها يمتاز بالقوة، وغايته فيه واحدةٌ هي الدعوة إلى الإسلام، واستخدام الشعر كوسيلةٍ لهذه الغاية، ولذا جنَّد هذا الشعر لهذا الغرض، إمَّا بقصائده الطوال كـ(يا أمَّتي وجب الكفاح) أو (الملحمة النونية) التي صوَّر فيها ما جرىٰ من تعذيبٍ بَشِعٍ له ولإخوانه الدعاة، وكتب في الديوان عدة أناشيد تغنَّى بها الشباب المسلم، كنشيد (مسلمون) ونشيد (العودة). وقد زاد الشيخ في طبعة الديوان الجديدة ثلاث قصائد: الفراق الطويل، وهي رثاء

رفيق الكفاح معه، محمد الدمرداش مراد، والثانية: بشرى ودعاء، بمناسبةِ مولودٍ صغير سمّي باسمه (يوسف)، والثالثة: بنت قنا، وهي قصيدةٌ غزليّة تغزّل فيها الشيخ في (القلة القناوية).

* * *

عرض لبعض مؤلفات الشيخ

١ ـ الحلال والحرام في الإسلام

قصة تأليف الكتاب:

ألَّف الشيخ هذا الكتاب بتكليفٍ من مَشْيخة الأزهر في عهد الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ وتحت إشراف الإدارة العامة للثقافة الإسلامية في عهد الدكتور محمد البهي ـ رحمه الله ـ، وقد أقرَّته اللجنة المختصّة وأثْنَت عليه. وذلك عندما اقترحت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية كتابة عدة كتب تُلخِّص الإسلام، وتُيسِّره لمسلمي الأقليّات الإسلامية[١]، بعد أن تقدَّم عددٌ من مسلمي أمريكة بطلبٍ إلى الأزهر الشريف، وإلى وزارة الأوقاف المصرية، يشكون فيه قلَّة الأبحاث التي تُعالج قضايا العصر، وبخاصَّة ما يتعلَّق بأحكام الأقليَّات المسلمة، وما يهمُّ المسلم في دول الغرب من حلال وحرام، وقد حُدِّد للشيخ عنوان البحث، على أن يكتب في موضوع: ما يحلُّ للمسلم وما يحرم عليه.

ونشط الشيخ للكتابة، ولكنه في بداية الأمر أحسَّ بثقل الكتابة، وذلك لعدة أسباب، أهمُّها:

---

(١) ولذلك نقد الأستاذ محمد عبد الله السمان كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) في نقطةٍ واحدة بعد أن عرض الكتاب عرضاً رائعاً في مجلة (الأزهر) سنة ١٩٦١م، وهي: أنَّ الشيخ القرضاوي كتب كتابه لمسلمي الأقليَّات المسلمة، فما الداعي من ذكر الخلاف بين العلماء في كثيرٍ من القضايا، والمسلم غير العربي ليس معنيًّا بالخلاف ولا علم له بالمذاهب الفقهية، فكان ينبغي أن يكون الكتاب مقتصراً على ذكر الراجح فقط. تلك كانت ملحوظة الأستاذ السمان، وقد صارت في غير موضعها الآن؛ لأنَّ الكتاب عمَّ نفعه العربَ قبل العجم.

أولاً ـ أنَّ موضوع الحلال والحرام موضوعٌ شائك، كما أنه لم يكتب فيه مباشرةً من قبل.

ثانياً ـ أنَّ الموضوع مُتناثر في بطون أمَّهات الكتب، ومن العسير جمع شَتَاتها.

ثالثاً ـ أنَّ آراء الفقهاء والعلماء تختلف باختلاف توجُّهاتها الفقهية والفكرية في نظرتهم لقضايا الحلال والحرام.

رابعاً ـ أنَّ هذا المؤلَّف يعدُّ المؤلَّف البكر للشيخ، وهو سفيره إلى الناس، فإمَّا أن يرفعه، وإمَّا أن يخفضه، وهذا يجعل المؤلِّف قلقاً عند الكتابة.

بدأ الشيخ في جمع المادة العلمية في ذهنه، وحَصَر في ذهنه تقسيم الكتاب، من حيث أبوابه وفصوله، وبذلك خفَّ عنه حمل نصف الكتاب، كما يقول الشيخ. ثم ذهب إلى المكتبة العامة بالأزهر ليجمع المادة العلمية من الكتب، فلقيه الشيخ أبو الوفا المراغي[١] ـ وكان أميناً لمكتبة الأزهر ـ وقال له: فيم أنت مشغول يا قَرَضاوي؟ قال: أنا مشغول بجمع مادةٍ علمية لبحثٍ أكتبه عن الحلال والحرام، فقال له: ولكنَّ هناك شيخاً من شيوخ الأزهر الكبار، وهو عضو هيئة كبار العلماء يكتب في نفس الموضوع، وقد كلَّفته وزارة الأوقاف بذلك ـ ولم يثبِّط ذلك من عزيمة الشيخ القرضاوي ـ فقال الشيخ: يا مولانا، من الممكن أن يجعل الله سرَّه في أضعف خَلقه[٢]، قال له: ربما يا قرضاوي، وفَّقك الله.

---

(١) من علماء الأزهر الشريف، وهو شقيق الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر سابقاً.

(٢) مثلٌ مصريٌّ يقال عندما يستكثر الناس على إنسانٍ أن يفعل شيئاً كبيراً، وهو ـ كما يراه الناس ـ دون ذلك.

وكتب الشيخ الكتاب، وأعطاه للأزهر ليُرسَلَ إلى اللجنة المختصَّة لقراءته، وكان من أعضاء هذه اللجنة الشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور محمد المبارك، وأثنَوا على الكتاب ثناءً كبيراً، وأوصوا بطباعته.

وبعد أن أعطى الشيخ الكتاب للأزهر، وجد أنهم تكاسلوا عن طبعه، فأخذه ونشره، ولم ينتظر أن تنشره الإدارة، وذهب إلى مطبعة (الحلبي) فعَرَضوا الكتاب على لجنة الطباعة عندهم وهي من العلماء، وأعجبوا بالكتاب، ونشره الحلبي، وأخذ الشيخ نسخةً منه إلى الدكتور محمد يوسف موسى[1] ـ رحمه الله ـ ليعطيه نسخةً من الكتاب، فقال له الدكتور موسى: ما هذا يا يوسف؟ قال: هذا كتابٌ ألَّفتُه عنوانه: (الحلال والحرام في الإسلام)، فاطَّلع عليه الدكتور موسى، فقال له: إنَّ أحد علماء الأزهر الكبار، وهو عضو هيئة كبار العلماء، كُلِّف بكتابة نفس الموضوع، ولا أظنُّه ينشر كتابه لو اطَّلع على كتابك، وبالفعل ذهب هذا العالم إلى الأوقاف بعد أن كتب كتابه، وسحب الكتاب الذي قدَّمه[2].

كيف تلقَّى العلماءُ والقرَّاءُ الكتابَ؟

وقد انتشر الكتاب انتشاراً منقطع النظير في العالم العربي والإسلامي، وبين الأقليَّات والجاليات الإسلامية، ونوَّه به كثيرٌ من العلماء المرموقين، حتى قال الأستاذ الكبير مصطفى الزرقا ـ رحمه الله ـ: «إنَّ

---

(١) من علماء الأزهر النابهين، كان ضليعاً في عدة ميادين من العلم، عالماً بالفلسفة الإسلامية، وبالشريعة، رحمه الله، وهو من الشخصيات التي تأثَّر بها الشيخ القرضاوي.

(٢) وهذا يدلُّ على خُلق الرجل، وهذا مثالٌ نادر في أخلاقيات أهل العلم الآن، فكم من كتبٍ طلعت بعد كتاب الشيخ، ولم تُشر من قريبٍ أو بعيد إلى فضله، فضلاً عن الهجوم الحادّ على الكتاب.

اقتناء هذا الكتاب واجبٌ على كلِّ أسرةٍ مسلمة»، وقال الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ: «هو أفضلُ كتابٍ في موضوعه»، وكان الأستاذ الكبير علي الطنطاوي قرَّره على طلاَّبه في كلية التربية بمكة المكرمة في مادة الثقافة الإسلامية.

وعُنِيَ المحدِّث الشيخ ناصر الدين الألباني بتخريج أحاديثه[1]، وأبدىٰ الشيخ الألباني عدة ملاحظات على بعض الأحكام التي في الكتاب، وكتب الشيخ القرضاوي ردًّا على ما أثير حول كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) سواء ما أبداه الشيخ الألباني أو غيره من العلماء الأجلاَّء[2]، ورغب الشيخ القرضاوي في نشر ردوده، غير أنَّ أحد أصدقاء الشيخ[3] أقنعه بعدم الرد، وذلك لسببين مهمّين:

أوَّلهما ـ أنَّ كثيراً من الناس قلَّ أن يُغيِّر رأيه إلى رأي الآخر، فلكلٍّ قناعته بأدلة مذهبه أو ما يعتنق من فكر.

ثانيهما ـ أنَّ الردود ستزيد من حجم الكتاب، وهذا يعني صفحات أكثر، وأن يرتفع سعر الكتاب، وهذا يجعل القارئ يزهد في شرائه، لأنه سيمثِّل عبئاً ثقيلاً على القارئ غير المتيسِّر الحال.

غير أنَّ الشيخ نَشَر معظم هذه الردود ـ وإن لم تكن على هيئة ردود ـ في كتابه القيّم (فتاوىٰ معاصرة)، المهم أنَّ الكتاب حاز إعجاب الكثير من علماء العالم العربي:

---

(١) كما خرَّج كتاب (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) للشيخ القرضاوي.

(٢) وقد كتبتُ ردًّا ضافياً على بعض هذه الشبهات في كتابي (القرضاوي فقيهاً) في الباب الأخير: فقه القرضاوي بين الإنصاف والإجحاف. طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية.

(٣) هو الناشر الإسلامي المعروف الحاج وهبة حسن وهبة.

منهم الأستاذ عبد الرحيم فودة، الذي هنّأ الشيخ على الكتاب قائلاً:

أهنّئك على كتاب (الحلال والحرام) ـ وكان أهداه إليه في طبعته الأولى ـ مرّتين: مرةً على نهجك الجديد الفريد في كتابة الفقه، ومرةً أخرى: أنك لم تُجامل شيخ الأزهر الإمام الأكبر ـ الشيخ شلتوت ـ في آرائه حول التوفير وغيره[1].

وفي باكستان نوّه به العلاّمة الأستاذ أبو الأعلى المودودي في رسالةٍ خاصة إلى المؤلف، كما اهتمّت به الأقسام الأكاديمية للدراسات الإسلامية في جامعتي (البنجاب) و(كراتشي).

وفي أوائل الستينيات قدّمت الباحثة جميلة شوكت (د. جميلة شوكت) إلى قسم الدراسات الإسلامية بجامعة البنجاب دراسةً عن الكتاب باعتباره نموذجاً جديداً في كتابة الفقه الإسلامي، وقد حصلت بدراستها تلك على (الماجستير)، وكان المشرف عليها العلاّمة علاء الدين الصِّدِّيقي رئيس الجامعة بعد ذلك.

كما قدّم طالبٌ آخر من جامعة كراتشي دراسةً أخرى عن الكتاب.

وطُبع الكتاب ما لا يقلُّ عن خمسين مرةً بالعربية، حيث تطبعه أكثر من دار نشر بالقاهرة وبيروت، والكويت والجزائر، والمغرب وأمريكة.

هذا عدا الطبعات المسروقة التي يصعب تتبُّعها وحصرها.

كما تُرجم الكتاب إلى الإنكليزية والألمانية، والأردية والفارسية، والتركية والماليزية، والإندونيسية والماليبارية، والسواحلية والأسبانية والصينية، وغيرها[2].

---

(١) انظر فوائد البنوك هي الربا الحرام، ص١١٥ طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت.
(٢) وأخيراً باللغة الرومانية.

بدأ الشيخ كتابه ببيان عدّة قواعد مهمة لمن يكتب في موضوع الحلال والحرام في الإسلام، وهي: الأصل في الأشياء الإباحة ـ التحليل والتحريم حقُّ الله وحده ـ تحريمُ الحلال وتحليلُ الحرام قرين الشرك بالله ـ التحريم يتبع الخبث والضرر ـ في الحلال ما يُغني عن الحرام ـ ما أدّى إلى الحرام فهو حرام ـ التحايل على الحرام حرام ـ النيَّة الحسنة لا تبرِّر الحرام ـ لا محاباة ولا تفرقة في المحرَّمات ـ الضرورات تبيح المحظورات. بهذه القواعد بدأ كتابه، وهي قواعد جدُّ مهمة لمن يطرق باب الحديث عن الحلال والحرام.

ثم تناول الشيخ في كتابه معظم القضايا التي تهمُّ المسلم في حياته، ممَّا يحلُّ أو يحرم: في حياته الشخصية: في الأطعمة والأشربة، وفي الملبس والزينة، وفي البيت، وفي الكسب والاحتراف. وفي مجال الزواج والأسرة وما يتعلّق بهما من أحكام، وما يتعلّق بحياته العامة من حلٍّ أو حرمة.

هذه نظرةٌ موجزة جدًّا على الكتاب، ولا يتَّسع المقام لتفصيل فالكتاب يحتاج أن يُفرد بدراسةٍ مستقلة.

* * *

٢ ـ فقه الزكاة

ويقع في جزأين كبيرين، وهو دراسةٌ موسوعيةٌ مقارَنة لأحكام الزكاة وأسرارها وآثارها في إصلاح المجتمع، في ضوء القرآن والسنة، ويُعدُّ من أبرز الأعمال العلمية في عصرنا.

وكان الدافع وراء اختيار الموضوع هو: خلوُّ المكتبة الإسلامية من كتابٍ معاصر عميق موسَّعٍ عن الزكاة وأحكامها وفلسفتها، ورأى أن هذا الموضوع يحتاج إلى بحثٍ، ومن ناحية أخرى وجد سوء فهم بين الكثيرين حول الزكاة، فقد ذكر الأستاذ خالد محمد خالد ـ رحمه الله ـ في كتابه (من هنا نبدأ) عن اشتراكية الصدقات، ويرمز بهذا إلى الزكاة.

وكتب الصحفي المشهور أحمد بهاء الدين في صحيفة (أخبار اليوم) الأسبوعية قائلاً: إنَّ الزكاة لا تصلح في النظام الحديث لأن النظام الحديث يعتمد على العمل والإنتاج وليس على الصدقات، كأنه يرى أنَّ الزكاة هذه للمتسوِّلين ومعونة للكسالى والمتبطلين... إلخ. فهذا ما دفع الشيخ إلى اختيار هذا الموضوع.

قصة الكتاب:

لهذا الكتاب ـ خصوصاً ـ قصّة، فقد كان في الأصل الرسالة التي سينال بها الشيخ رسالة الدكتوراه، ونذكرها للقارئ هنا لأهميتها.

يقول الشيخ عن قصة الكتاب:

كنت قد تقدَّمت بالموضوع على أساس أن يكون رسالتي في

الأستاذية كما كانت تُسمَّى آنذاك، بعد أن أنهيت السنوات الثلاث في كلية أصول الدين، وكان الموضوع عنوانه: (الزكاة في الإسلام وأثرها في حل المشاكل الاجتماعية)، وأذكر أني حينما أصدرت كتابي: (الحلال والحرام في الإسلام)، وأهديت نسخة منه إلى مشرفي الشيخ أحمد علي ـ رحمه الله ـ في كلية أصول الدين، فقرأه وتصفَّحه، ثم قال لي: لماذا تعجلت في إخراج هذا الكتاب؟ قلت: ولماذا؟ قال: كنت تُقدِّمه وتحصل على الأستاذية. قلت: أنا أريد أن أقدِّم بحثاً ضخماً وأبذل فيه جهداً. فقال: يا رجل، المطلوب الآن أن تأخذ رخصة حتى يكون اسمك الدكتور يوسف القرضاوي، وبعدها ألِّف ما تشاء.

وكان مُخلصاً ولم يتبيَّن لي صدق كلامه وصوابه إلا بعد ما عانيت بعد ذلك في هذه الرسالة، لأنَّ مشايخ كلية أصول الدين أتعبوني جداً، وقالوا في بداية الأمر: إن هذا فقه وهو ألْيَق بكلية الشريعة وليس بكلية أصول الدين.

قلت: هذا فقه القرآن والسنة ونحن كلية القرآن والسنة، ولا مانع من أن نشترك مع كلية الشريعة في بعض الأمور، أليست هناك آيات الأحكام تدرَّس في الكليتين وهناك فقه الحديث؟ كما أنَّ هناك علم اختلاف الحديث وعلم الناسخ والمنسوخ هذه علوم من علوم الحديث، ومع ذلك تدرس في الكليتين، فتعبتُ معهم، وخاصَّة بعد وفاة الشيخ علي عام ١٩٦٢م، فأصبحت حائراً بين المشرفين، وكنت آنذاك في قطر حيث جئت إليها مبعوثاً من الأزهر الشريف لإدارة المعهد الديني عام ١٩٦١م.

وقد كان بعضهم متحفِّظاً على التجديد الذي في الكتاب، حتى إنَّ أحد المشايخ كتب إلى الشيخ عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين، وذلك على ما أعتقد في سنة ١٩٦٣م كتب إليه قائلاً: «أرجو أن تعفيني من الإشراف على رسالة الطالب يوسف القرضاوي، لأنها تتضمَّن آراء دينية

خطيرة لا أستطيع تحمُّل مسؤوليتها». يقصد مسؤولية الآراء الاجتماعية فيها، هذا مع أنَّ المُشْرِف لا يتحمَّل آراء الطالب، فالطالب هو المسؤول عن آرائه.

ثمَّ قدمت الموضوع للكليّة سنة ١٩٦٠م وبدأت العمل والكتابة فيه، وفي سنة ١٩٦١م جئتُ إلى قطر، وكان من المفروض أن أقدِّم الرسالة في عام ١٩٦٤م للمناقشة، ولكن طبعاً المشايخ لم يقبلوا ـ كما سبق ـ، وفي سنة ١٩٦٥م حَدَث ما حدث في مصر للإخوان، وكان من فضل الله عليَّ أني أبقيت أصول الكتاب عندي فقلَّبت فيه، وأعدتُ النظر في كثير من الأشياء، وأخذتُ أعمِّق البحث إلى سنة ١٩٦٩م ولم أنزل إلى مصر طوال الفترة من سنة ١٩٦٤م إلى سنة ١٩٧٣م بسبب الظروف السياسية.

وقيل لي في سنة ١٩٦٩م: يمكنك أن تقدِّم في جامعة (لاهور) في باكستان للحصول على الدكتوراه، وأنَّ رئيس الجامعة صديق الأستاذ المودودي، وهو يعرفك أيضاً، وهو البروفسور علاء الدين الصدِّيقي، وكان رئيس قسم الدراسات الإسلامية قبل ذلك وأشرف على رسالة طالبة قدمت عن كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) باعتباره نموذجاً جديداً في الفقه المعاصر، واهتمَّ به الإخوة الباكستانيون، فطالب قدَّم فيه بحثاً في جامعة كراتشي، وقبله قَدَّمت إحدى الأخوات وهي الأستاذة الآن الدكتورة جميلة شوكت وقتها كانت تدرس الماجستير، وهي باكستانية في جامعة لاهور، وطبعاً الماجستير فيه دراسة منهجية وفيه بحث، فكان البحث في كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) وراسلتني وطلبت مني بعض الأشياء وكان المشرف عليها الأستاذ علاء الدين الصدِّيقي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً للجامعة.

فبعض الأخوة قالوا لي: اكتب للأستاذ المودودي، وكتبت فعلاً له وقلت له: إن عندي بعض الظروف كذا كذا، وبعض الأخوة نصحوني بكذا، فيمكن أن تكلِّم الأستاذ الصدِّيقي، ولقد أرسل إليَّ ورحَّب كثيراً

وقال: إنه كلَّم العلاَّمة الصدِّيقي، وأن الرجل قد سرَّه ذلك جداً وفرح، وأنه يُرَحِّب بك في أيِّ وقتٍ تأتي.

وفي صيف سنة ١٩٦٩م ذهبت لأول مرة إلى باكستان، وذهبت إلى لاهور، وفي ذلك الوقت كانت ما تزال باكستان شرقية وغربية، وبقيت هناك ثلاثة أسابيع أو أكثر في لاهور، واستقبلني الأستاذ علاء الدين الصِّدِّيقي بترحيب، والإخوة هناك استقبلوني استقبالاً حافلاً في الجامعة، وحتى إنَّ بعضهم كان يقول لي: أنت الشيخ القرضاوي؟ أنت الشيخ القرضاوي؟ وقال أحدهم: الحمد لله، الحمد لله، قلت له: على أيِّ شيء تحمد الله، قال: كنت أحسبك في الستين أو السبعين.

المهم أنَّ الدكتور الصِّدِّيقي قال لي: نحن نرحِّب بك، ولكن هناك مشكلة بالنسبة لنا هي مَنْ سَيُشرف عليك؟ فكل الأساتذة عندنا يعتبرون تلامذة بالنسبة لك، فتعيين مشرف عليك مسألة صعبة، ولكن نحن عندنا نوع آخر من الدكتوراه (دي لت) هي دكتوراه ليست أطروحة، ولكنها على أساس الإنتاج العلمي، وهي أعلى ولا تُعطَى إلا للقليلين والنوادر، فنحن نعطيك على كتبك، فقلت له: والله لو كان العطاء على كتبي فإني أفضِّل أن يكون عن كتابي (فقه الزكاة) الذي تعبتُ فيه سنين طويلة على رأس الكتب، فقال لي: ممتاز، فقلت: إذن أطبع الكتاب، لأن كتبي في ذلك الوقت: الحلال والحرام، ومشكلة الفقر، والعبادة في الإسلام، والإيمان والحياة، وغيرها لم تكن كافية، قال: جيِّد، ولكن عليك أن تُسرع في الوقت، قلت: إن شاء الله.

وجئتُ من باكستان إلى قطر، ومن قطر إلى بيروت لطباعة كتاب (فقه الزكاة)، وغيَّرت العنوان لأني وجدت أننا فعلاً يجب أن نتحدث عن فقه الموضوع، ونقصد بالفقه ليس فقط الفقه بالمعنى الاصطلاحي، ولكن بالمعنى القرآني فقه الزكاة وفقه الأسرار، ولذلك كان فقه الزكاة

دراسة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، وذهبت إلى بيروت في ذلك الوقت في أواخر شهر يوليو؛ واتفقت مع دار الإرشاد في ذلك الوقت لطبع الكتاب، وبقينا في شهر أغسطس، وبدأنا بالطباعة وطبعنا عدة ملازم من الكتاب، واضطررت أن أعود إلى قطر حيث انتهت فترة الإجازة، وكنتُ مديراً للمعهد الديني في ذلك الوقت، وقلت للإخوان في لبنان: ابعثوا إليَّ كل ما يطبع أولاً بأول، وبعثوا لي كذا ملزمة، حتى بقيت إلى الصيف الذي بعده.

وذهبت من أوائل الإجازة الصيفية وبدأنا نشتغل، المهم أصبح شبه منتهٍ إلا عدة ملازم، وجئنا في الصيف وقلت: المهم الذي ينتهي من الملازم الأخيرة ابعثوها إليَّ، وفي ذلك الوقت مات جمال عبد الناصر في سنة ١٩٧٠م، ولكن الكتاب كان يجب أن يخرج مع طبعة كتاب (فقه الزكاة) في أوائل سنة ١٩٧١م وبدأنا بالتوزيع، غير أنَّ فكرة الذهاب إلى باكستان تأرجحت وضعفت، فعاد لنا أمل في مصر.

ولكن ظهر لنا إشكال آخر وهو: انتهاء الزمن، لأنه بعد ست سنوات تسقط وقد فات أكثر من عشر سنوات.

وفي سنة ١٩٧٢م وهي أول مرة أخرج فيها من قطر للمؤتمرات في هذه السنة ذهبت إلى ليبية، وبدأت هناك في مؤتمر التشريع الإسلامي، والتقيت بالشيخ أبي زهرة والشيخ علي الخفيف وبعض مشايخ الأزهر، وقالوا: لماذا لا تأتي وتقدِّم في الأزهر؟ وكان الشيخ أبو زهرة قد اطَّلع على كتابي، وقال: أنت صاحب كتاب فقه الزكاة؟ وفي الحقيقة لم أكن قد قابلت الشيخ أبو زهرة وجهاً لوجه، لأنني بعد ما خرجت من المعتقل سنة ١٩٥٦م بدأنا نحاول أن نعمل ولم نجد العمل المناسب، ولم يقدَّر لي أن أرى الشيخ أبا زهرة، المهم شجَّعني المشايخ على القدوم على مصر مرة ثانية، وجئت وشاء الله تعالى أن يُصْدِر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ

الأزهر في ذلك الوقت قراراً لتمديد فترة الرسالة إلى (١٢) سنة فشملني القرار، ونوقشت رسالتي والحمد لله[١]، وهي عن (الزكاة) وقد استللتها من كتابي (فقه الزكاة).

انطباع العلماء عن الكتاب:

شهد المختصُّون أنه لم يؤلَّف مثله في موضوعه في التراث الإسلامي، وقال عنه العلامة أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ: إنه كتاب هذا القرن (أي الرابع عشر الهجري) في الفقه الإسلامي، نقله عنه الأستاذ خليل الحامدي.

وقال عنه الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه عن (الاقتصاد) من سلسلة (نظام الإسلام): «وهو عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويعتبرُ حَدَثاً هاماً في التأليف الفقهي».

وقد قال أحد العلماء: لو لم يؤلِّف القَرضاوي سوى (فقه الزكاة) للقي الله وقد قدَّم خدمة علميَّة للإسلام وأهله.

وقد تبنَّى مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ترجمته إلى اللغة الإنكليزية وأنهاها بالفعل.

كما نُقل إلى الأوردية والتركية والإندونيسية وغيرها، ككثير من كتب الشيخ، نفع الله بها المسلمين في أقطار كثيرة.

قام الشيخ القرضاوي في هذا الكتاب بجهد رائع[٢]، حيث جمع

---

(١) انظر بحث الدكتور علي القرة داغي (فقه القرضاوي في الزكاة) ضمن بحوث الكتاب التذكاري المكتوب بمناسبة بلوغ الشيخ القرضاوي السبعين. بتصرُّف شديد.

(٢) بلغت مراجع الشيخ في هذا الكتاب ستة وثمانين مرجعاً بعد المئتين.

كلَّ ـ أو جلّ ـ النصوص والأقوال والآراء التي في باب (الزكاة) ثم ناقش ونقَّح ورجَّح دون عصبيةٍ لرأي أو لمذهب، وقدَّم أسلوباً جديداً في الفقه، حيث يربط الحكم الفقهي بالفلسفة المكنونة وراء هذا الحكم.

وقد بيَّن الشيخ المنهج الذي سار عليه في تناوله لأحكام الزكاة، ومصادره في الكتاب، ومنهجه في الترجيح.

ويبرز في الكتاب خاصيَّة مهمةً من خصائص القرضاوي الفقيه، وهي خاصية الاجتهاد، فقد مارس في هذا الكتاب الاجتهاد بنوعيه: الإنشائي والانتقائي، كما يتَّضح ذلك في الكتاب، ولا مجال هنا لتناول القضايا التي تناولها الشيخ واجتهد فيها[١].

وقد سُئل الشيخ[٢] حول كتابه (فقه الزكاة)، وهل غيَّر من آرائه فيها، فأجاب: نعم، منها على سبيل المثال رأيي في زكاة الأسهم، حيث أرى الآن أن الواجب إخراج العشر (١٠٪) من الأرباح الحقيقية، في حين كان رأيي غير ذلك[٣].

وهذا أمر طبيعي لكل فقيه قديماً وحديثاً، فكل الأئمة لهم آراء قديمة وآراء جديدة كما هو معروف. ولكن هذا قليل، ومعظم آرائي لا أزال متمسِّكاً بها مقتنعاً بضوابطها، وإن لم يوافقني الكثيرون عليها، شأن كل اجتهاد جديد.

* * *

---

(١) انظر: كتابي (القرضاوي فقيهاً)، ص١٤٦ ـ ١٥٠، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية الأولى.

(٢) سأله الدكتور علي القرة داغي في بحثه عن القرضاوي وفقه الزكاة.

(٣) يراجع رأي الشيخ بالتفصيل في هذه المسألة في فقه الزكاة: ١/ ٥١٩، ٥٣١.

٣ ـ فتاوى معاصرة

في هذا الكتاب طوَّف الشيخ بالقارئ في عدَّة موضوعات مهمة تشغل القارئ المسلم، وقد تميَّز هذا الكتاب بتوضيح منهج الشيخ الفقهي، وأسلوبه في الكتابة، وقد خرج فيه على نظام الفتاوى المألوف لدى الناس، والمعروف بالكتابة المُقْتضبة التي لا تعدو قول المفتي: حلال، أو حرام، دون بسط للموضوع وشرحٍ وتعليل، وبيانٍ لحكمة التشريع وفلسفته، وهذا الأسلوب إن كان نافعاً في عصر من العصور، إلا أنه لا يصلح في هذا العصر الحديث، الذي أصبح القارئ يناقش في كل صغيرة وكبيرة، سائلاً عن حكمة الشرع فيما يُعلن المفتي من رأي.

كما أنه أعطى كل فتوى حقَّها من الشرح والتمهيد للحكم، حتى لا يستغرب القارئ الحكم المسطور في الفتوى. كما ربط بين الفقه والحياة، حيث لا يكتفي الشيخ بذكر رأيه في الفتوى دون إسْداء نُصْحٍ للمستفتي، حتى لا يشعر أن الدين بعيد عن حياة الناس.

ويتجلَّى في هذا الكتاب خصائص القرضاوي الفقهية من: وصل بين الفقه والحديث، فلا يذكر رأياً إلا ومعه أدلته من الكتاب والسنة. كما أنَّ وسطيته واضحة في الحكم على الأسئلة والرد عليها، دون شَطَط أو غُلُوّ.

وتبدو خاصيّة الواقعية كذلك، وتبدو أكثر ما تبدو في نوعية الفتاوى المُنتقاة، فقد انتقى ما ينفع الناس، وما يهمُّ الناس ويشغل تفكيرهم، ولم يهتم بسفاسف الأمور: كالسؤال عن اسم أم موسى، أو اسم أخته، إلى

آخر هذه الأسئلة التي لا ينبني عليها عمل، والتي يقال عن مثلها: علم لا ينفع، وجهل لا يضر.

وقد أخرج الشيخ من هذه السلسلة المباركة ثلاثة أجزاء، بيَّن في الجزء الأول منها ـ في المقدمة ـ منهجه في الفتوى، وأخذ الجزء الأول طابع الإجابة غير المطوَّلة، ولا القصيرة، بينما أخذ في الجزئين الثاني والثالث منها طابع التفصيل، إلى حدٍّ يقترب ـ في بعض الفتاوى ـ من أسلوب البحوث الفقهية، نظراً لما تطلبته الموضوعات المتناولة في ذلك الجزء.

ويعمل الشيخ الآن ـ إن شاء الله ـ على إخراج الجزء الرابع من الفتاوى، نسأل الله أن يعينه على ذلك، وأن يجعله في ميزان حسناته.

* * *

٤ ـ تيسير الفقه للمسلم المعاصر
في ضوء القرآن والسنة

في هذا الكتاب يبين الشيخ القرضاوي ـ حفظه الله ـ الفقه الميسَّر المنشود، وأصول هذا الفقه، ويُعَدُّ هذا الكتاب الجزء الأول لتلك السلسلة التي عَزَم الشيخ ـ منذ سنين ـ على إخراجها، وقد أخرج منها: (فقه الصيام) ثم تأخَّر هذا الجزء لفترة، رغم انتهاء الشيخ منه قبل طباعته لبضع سنوات، وقد أخرجه الشيخ من مكتبته مخطوطاً، بطلبٍ مني عندما كنت أكتب عن منهج الشيخ القرضاوي في التيسير، وأصول هذا المنهج، فأعطاني الكتاب مخطوطاً لأقتبس منه، ولمَّا سألته: لِمَ لا يخرج هذا الكتاب للنور؟! قال: أطمع أن أضيف عليه إضافات قليلة، رغم أن الكتاب كان مكتملاً، وبعد فترة وجيزة لا تتعدَّى شهرين، دفع الشيخ بالكتاب لمكتبة (وهبة) لنشره.

في هذا الكتاب تبرزُ خاصيَّة مهمة من خصائص فقه القرضاوي، إنها خاصيَّة (التجديد) وهذا ما تُثبته صفحات الكتاب، والقضايا التي تناولها فيه، سواء كانت أصولية، أو في تيسير الفقه عامة.

قسَّم الشيخ كتابه إلى ثلاثة كتب: الأول تناول فيه مدى احتياج الأمة الإسلامية إلى تبنّي منهج التيسير، وشرعيَّة هذا المنهج، وليس معنى التيسير أن نلوي عُنُقَ النصوص إرضاءً للعوام، أو إرضاءً للحكام. إنما التيسير معناه: تبنِّي أيسر الآراء مع مراعاة النصوص، والسير وراءها، والاستناد إليها.

وقد بيَّن الشيخ أن المقصود من التيسير أمران:

أولهما: تيسير الفقه للفهم. حيث إنَّ المسلم غير المعني بدراسة الشريعة الإسلامية يشعر بصعوبة فهم الفقه، ومع تطوُّر الحياة وزحمتها بالعمل الذي جَعَل الناس مشغولين عن مطالعة الفقه، يحتاج الناس في هذا الزمن إلى من يُيَسِّر عليهم فهم الفقه، ويتحقق هذا التيسير بعدة أمور: أن يكتب بلغة مفهومة ومألوفة، وأن يتجنب وعورة المصطلحات الغامضة الصعبة، وأن يكون متوسِّطاً في أسلوبه بين الإيجاز المُخل، والإطناب المُمل.

كما يشترط فيه أن يخاطب العقل المعاصر، لايخاطب عقول الناس في القرن الحادي والعشرين، بعقلية من كانوا في القرون الخالية. وأن تستخدم معارف العصر الحديث ومصطلحاته، ويربط بالواقع المعيش، وأن يحذف ما لا صلة له بهذا الواقع كمسائل (الرق) وغيره.

كما ينبغي أن تُربط الأحكام الجزئية بعضها ببعض، وبالمقاصد الكليَّة العامة للشريعة، ولرسالة الإسلام، فإنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزَّأ. وينبغي التخفُّف من كثرة الزوائد والتعقيدات التي في الفقه، والتي تسرَّبت إليه من عصر الجمود الفقهي.

وحتى يُؤْتي هذا التيسير ثماره المنشودة لا بد من عدة أمور مكمِّلة لما سبق ذكره وهي: أن يُكتب الفقه على مستويات مختلفة، حسب مستويات الناس الثقافية، وأن يُراعَى الترقيم ووسائل الإيضاح والفهرسة الدقيقة، ممَّا يُعين الباحث على الاستفادة بما يكتب في الفقه، لا أن يتيه في الكتاب بحثاً عن حكم شرعي.

ثم تطرَّق الشيخ إلى تيسير الفقه للتطبيق، وذلك لا يكون إلا إذا راعينا جانب الرُّخَص في الشريعة الإسلامية، وراعينا الضرورات والظروف

المخفَّفة، فالضرورات تبيح المحظورات، كما قال فقهاؤنا، ولابدَّ كذلك من اختيار الأيْسر من الآراء، فالإسلام دين التيسير، ونبيُّ الإسلام ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. وينبغي أن نضيِّق في قضية الإيجاب والتحريم، ولا نتوسَّع في ذلك، لأننا لو توسَّعنا سنضع الناس في حرج شديد، وما جعل الله علينا في الدين من حرج.

ولا بدّ إذا أحببنا أن نيسِّر الفقه للتطبيق: أن نتحرَّر من العصبية المذهبية، ولا نقحم أنفسنا في الأخذ بمذهب واحد من المذاهب الأربعة، فالمذهب الواحد قد يضيق في بعض المسائل والقضايا، ولكن الشريعة بنصوصها ومقاصدها، ومجموع مذاهبها وتراث فقهائها، فيها من السَّعَة والمرونة، ما يعطي حلاً لكل مشكلة، ودواءً لكل داءٍ من طبِّ الشريعة نفسها. وأخيراً أن نيسِّر فيما عمَّت به البلوى.

ثم ناقش الشيخ قضيّة الرؤى، وهل تعدُّ دليلاً في العلم الشرعي، ومدى أهمية الكشف كذلك، وهل يصلح دليلاً للشريعة الإسلامية؟

* * *

٥ ـ المبشِّرات بانتصار الإسلام

في هذا الكتاب يعالج الشيخ القرضاوي قضيةً جدّ مهمة، وهي من الأهميـة بمكان. إنها قضيـة يأس بعض الدعاة من تحقُّـق النصـر، أو استبْطائه.

وقد تسرَّب هذا اليأس إلى كثير من الشباب المسلم، وذلك بسبب ما يرونه من تضييق على كلِّ مظاهر التديُّن، وتجفيف منابعه، أو محاربة كل عمل دَعَوي يجدِّد الإسلام، أو يوقظ المسلمين من سُباتهم. ثم ازداد الواقع سوءاً بأن رأى المسلمون هذا التآمر العالمي ضد الإسلام وأهله، ففي كل بقعة من بقاع الأرض يُسفك دم المسلمين بلا كرامة. كما ساعد على تسرُّب هذا اليأس إلى قلوب بعض الدعاة والشباب: هذا التردي والتدني في أخلاق المسلمين، وبُعدهم عن دين الله عزَّ وجلّ.

كلُّ هذه الأحداث وغيرها أَوْحَت إلى الناس عامَّةً، وبعض الدعاة، عدم الاستبشار بعودة مَجْدِ وعزَّة الإسلام من جديد، وخُيِّل إليهم أنَّ الكفر في إقبال، وأنَّ الإسلام في إدْبار، وأنَّه لا أمل في دعوة، ولا رجاء في إصلاح.

ولكن القرضاوي بقلمه السيَّال، وعباراته الأدبية الرشيقة، وبنظرته الثاقبة في كتاب الله وسنَّة رسوله واستقْراء التاريخ، يُرسل أشعة الأمل، ويبدِّد ظلام اليأس. ولا غَرْوَ أن تسيل هذه المبشِّرات من مداد القرضاوي، فمرسلها رجل وضع نصب عينيه منهجاً من أهم خصائصه: التبشير في الدعوة، والتيسير في الفتوى.

بدأ الشيخ القرضاوي بسرد الآيات التي تبشِّر بانتصار الإسلام، ومنها: قول الله عزَّ وجلّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣]، ثم نقل كلام ابن كثير وما استدلَّ به من أحاديث على تفسيرها.

ثم ذكر الشيخ من مبشِّرات القرآن أيضاً: قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، وبيَّن أن الوعد مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده، وعدم الإشراك به.

واستشهد الشيخ بقصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذِّبين، وهذا كثير في القرآن. واستشهد بوعد الله بنصر المؤمنين وإنجائهم والدفاع عنهم، وبوعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم، إلى آخر ما ذكر.

ثم انتقل الشيخ إلى المبشِّرات من السنَّة النبويَّة، والتي ذَخِرتَ بعدد هائل من الأحاديث التي تُبشِّر بنصر الله لهذا الدين، ومنها: قوله ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الدِّين، ما بَلَغَ اللّيل والنّهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخلهُ اللهُ هذا الدِّين، بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزّاً يُعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»، وقوله: «إنَّ الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقَها ومغاربهَا، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُويَ لي منها، وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض». ومنها: قوله ﷺ: «لا تقومُ الساعة حتى تعودَ أرض العرب مروجاً وأنهاراً». ومنها الأحاديث التي تبشِّر بانتصار المسلمين على اليهود في معركة تدور بينهم، ونزول المسيح، وظهور المهدي، وظهور المجدِّدين في كل قرن.

وإذا كان القرآن والسنة يبشِّران بانتصار الإسلام، فالتاريخ كذلك يبشِّر بذلك، وقد استخلص الشيخ من التاريخ حقيقتين مهمتين:

الأولى: أنَّ النصر يأتي من الله عزَّ وجلّ عندما يكون الناس أحوج شيء إليه، وعندما تُغلق الأبواب في وجوه المؤمنين، إلا بابه سبحانه وتعالى، وشاهِدُ ذلك: ليلة الهجرة ونصر الله لرسوله، وغزوة بدر، والأحزاب وغيرها.

الثانية: هو المخزون النفسي والروحي الكبير، الذي تدَّخره الأمة، ولا يبرز إلا في المحن والخطوب، ودليل ذلك حروب الردّة، والحروب الصليبية، وحروب التتار، وحروب العصر الحديث التي ثبت فيها الإيمان أمام الكفر، وكان للمؤمنين الغلبة بتأييد الله ونصره، وكل ذلك شاهد أن التاريخ يبشِّر بانتصار الإسلام.

ثم أسهب الشيخ في ذكر المبشِّرات من الواقع المعيش، ولم ينكر أمراض الواقع وآفاته، ولكن هذا الواقع المريض لا يستمر، وقارن بين الأمس واليوم، مُبيِّناً دَوْر حركة الإحياء والتجديد من الإمام محمد عبده وغيره إلى الآن. وأشاد الشيخ بجهود الصحوة الإسلامية في الحياة، وأنها أثبتت وجودها على الصعيد الفكري والاقتصادي والسياسي والجهادي.

وبيَّن الشيخ أن المحن التي تحدث للدعاة في العصر الحديث لا تجعلهم ييأسون، فالمحنُ ليست علامةَ ضعفٍ أو موتٍ لدعاة الإسلام، إنما هي علامة قوة، كما أنها تزيدهم صلابةً على صلابتهم، وقوةً على قوتهم.

وإذا كان القرآن والسنة والتاريخ والواقع يبشِّرون بانتصار الإسلام فهناك مبشِّر مهم هو: السنن الإلـهية، تلك السنن التي وضعها الله في كونه هي سننٌ لا تتخلف، ومنها (سنة التداول) أو(المداولة) والتي يقول عنها

الله عزَّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فالأيامُ دُوَل يومٌ لك ويومٌ عليك، فاليوم الذي كان على المسلمين هو أمس واليوم، واليوم الذي لهم لا شك هو الغد إن شاء الله.

وهناك سنة (التغيير) والتي يقول عنها الله عزَّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كلُّ هذه المُبشِّرات التي ذكرها الشيخ تُعطي أشعةً من الأمل بالنصر، ولكن قد يعكِّر على المؤمِّلين صفوَ أملهم عدة أحاديث قد يُساء فهمها، وهي حديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ، فطوُبى للغرباء»، وحديث: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه». فهذه أحاديث تفيد أنَّ البشرية في انحدار لا إلى تقدُّم، فكيف تبشِّروننا بالنصر وهذه أحاديث صحيحة لا مَطْعن فيها، تنفي ما ذكرتموه؟! ولكن الشيخ لم يَدَعِ العقول تحارُ في فهم هذه الأحاديث، وشرَحَها شرحاً يزيل غامضها، ويضعها في موضعها الصحيح.

* * *

٦ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟

السُّنَّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد نالت السنة أهمية كبيرة في كتابات الشيخ القرضاوي، ومنها هذا الكتاب المهم، الذي ألفه بطلب من (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، وذلك بعد الضجَّة التي أحدثها كتاب الشيخ الغزالي: (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث). وقد سُرَّ الشيخ الغزالي سروراً شديداً عندما علم أنَّ الشيخ القرضاوي سيكتب في نفس الموضوع، موضوع السنة وكيفية التعامل معها، حتى قال رحمه الله: هذا جيد فالشيخ يوسف أقدرُ مني على تأصيل ما ذكرت من أفكار، ولن يعترض أحدٌ على ما سيكتبه[1].

بدأ الشيخ كتابه ببيان منزلة السنة النبوية، فهي التفسير العمليُّ للقرآن، والتطبيق المثالي للإسلام، وبيَّن واجبَ المسلمين نحو السنَّة، وحذَّر من تحريف أهل الغلو للسنَّة، وانتحالَ أهل الباطل لها، ومن التأويلات الجاهلة للسنة النبوية.

كما نوَّه الشيخ بمبادئ مهمة في التعامل مع السنَّة من حيث ثبوتها، فلا بدَّ من الاستيثاق ممَّا يُرْوى، أمن الصحيح أم من الضعيف؟ وحذَّر من رد الأحاديث الصحيحة بدعوى معارضتها للعقل، وبيَّن أن ردَّ الأحاديث الصحيحة كقبول الأحاديث الموضوعة، فردُّ الأحاديث الصحيحة لعدم

---

(١) نقلاً عن: (القرضاوي فقيه الدعاة وداعية الفقهاء) للدكتور طه جابر العلواني. وهي ضمن الكلمات المكتوبة في الكتاب التذكاري بمناسبة بلوغ الشيخ السبعين.

فهمها، أو تأويلها تـأويلاً غير مُسْتساغ، من المزالق التـي يقع فيها من يتعامل مع السنة دون تثبُّت، أو علم بالحديث النبوي.

والسنَّة هي المنبع الذي يستقي منها كلٌّ من: الداعية والفقيه، فالفقيه الذي يحفظ المتون الفقهية، وآراء المذاهب دون دراية منه بأسانيد الأحاديث التي يستشهد بها، فهو فقيه جانبه الصواب في رأيه، ولن يصلَ إلى الحق، لأنَّ الحقَّ يدور مع الدليل، لا مع أقوال الرجال، ولذا دعا الشيخ ـ في عددٍ من كتبه ـ إلى الوصل بين الفقه والحديث، وإلى رَدْم الفجوة التي بينهما.

والداعية أيضاً يحتاج في وعظه إذا وعظ، وفي دعوته إذا دعا إلى هذا الرصيد الهائل من سنَّة محمد ﷺ، لينثر على الناس طاقة من أزاهير السـنة ورياحينها، فما قيمة خطيب يُرْغي ويزبد بالكلام دون اسـتدلال بالسـنة، وليس معنى ذلك أن يأتي للنـاس بما يهزُّهم هـزّاً ولو كان من الموضوع والضعيف، وإن اختلف العلماء في رواية الحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ولكن في الصحيح ما يُغني. وعليه إن استشهد بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، أن يحذر من شيئين مهمين:

أولاً: ألاَّ يشتمل الحديث على مبالغات وتهويلات يمجُّها العقل أو الشرع أو اللغة.

ثانياً: ألاَّ يعارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منه.

ثم تكلم الشيخ عن المعالم والضوابط اللازمة لحسن فهم السنة النبوية، وهي ثمانية ضوابط:

أولها: أن تفهم السنة في ضوء القرآن الكريم، فالسنة النبوية جاءت مبيِّنة للقرآن، وما كان للمبيِّن أن يخالف المبيَّن، ولا للفرع أن يعارض الأصل، ولذا لا توجد سنةٌ صحيحة تعارض مُحْكمات القرآن وبيِّناته الواضحة.

وضرب الشيخ لذلك عدة أمثلة منها: حديث الغرانيق، فهو مردود بلا شك. وحديث: «شاوروهن وخالفوهن» فهو باطل بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ثانيها: جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، فلا يتناول موضـوع بأن تجمع بعض أحاديثه، بـل ينبغي أن تجمع جميعها، حتى تكتمل رؤيـة الفقيه، أو الشـارح في الموضوع، فمن تكلَّم عن إسـبال الإزار، لو أنه أخذ الأحاديث التي تبيِّن أنَّ مسبل الإزار في النار، دون نظرة إلى بقية الأحاديث، إذن لاتَّهم كثيراً من الناس بالمخالفة، ولأدخلهم جميعاً في الوعيد بالنار. ولكن الذي يقرأ جملة الأحاديث الواردة في هذا الموضوع يتبيَّن له: أنَّ هذا الإطلاق محمول على ما ورد من قَيْد (الخُيلاء) فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق.

ثالثها: الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث: فإذا تعارضت الأحاديث فلا بدَّ من إزالة التعارض بالجمع والتوفيق بينها، فهو أولى من الترجيح، ومن ذلك أحاديث نهي النساء عن زيارة القبور، بل تزجرهم وتلعنهم، مثل حديث أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ لعن زوَّارات القبور»، وهناك أحاديث في مقابل هذا الحديث وغيره، منها: قوله ﷺ: «وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». والجمع بين هذه الأحاديث ممكن، وذلك بحمل (اللعن) المذكور في الحديث على المُكثرات من الزيارة. وهكذا في كل الأحاديث المتعارضة، لا بدَّ من التوفيق والجمع، فالجمع مقدَّم على الترجيح كما يقول الأصوليون.

رابعها: فهم الأحاديث في ضوء مُلابساتها ومقاصدها: وكي تُفهم السنة فهماً صحيحاً كذلك لا بدَّ من البحث عن الحكمة من وراء الحديث، فإنَّ أحكام الشرع مُعَلّلة عند الجمهور، فهي لا تجمع بين مُتضادَّين، ولا تفرِّق بن مُتماثلين، أما أن تُفْصل الأحاديث عن ملابساتها وحكمتها

وعلَّتِها ومقاصدها. فلا يصحُّ هذا أبداً وضرب لذلك الشيخ عدة أمثلة، منها: أحاديث النهي عن سفر المرأة إلا بمَحْرم، فهل النهي هنا وراءه علَّة، أم أنه نهيٌ لمجرد النهي؟ الباحث عن علَّة الحديث يكتشف أن له علَّة، وهو: الخوف على المرأة من السفر وحدها بلا زوج أو محرم، في زمن كان السفر فيه على الجمال أو البغال والحمير، أما وقد تغيَّر الحال، والسفر في طائرة بها المئات، والأمان متوافر، وبرفقة هذا العدد الهائل من الناس، فلا بأس بسفرها وحدها.

خامسها: **التمييز بين الوسيلة المتغيِّـرة والهدف الثابت**: ومن آفات الفهم السقيم للسنة: عدم التفريق بين ما هو ثابت وما هو متغيَّر، فالمعلوم أن الوسائل تتغيَّر من عصر إلى عصر، لذا ينبغي كي نفهم السنة أن نفرِّق بين ما هو ثابت وماهو شأنه التغيُّر والتبدُّل، ومثال ذلك: استخدام السواك خارج الصلاة، فالمعلوم أنَّ السواك عند كلِّ صلاة سنة، أما في غير الصلاة، فهل يستخدم الإنسان معجون أسنان، أم لابدَّ من السواك؟ الأفضل هنا هو مايتحقَّق به نظافة الفم نظافة تامة، فالنظافة هدف، والسواك أو المعجون وسيلة، فكلُّ زمن وما يصلح له من وسائل، فلا يقولنَّ إنسان: إنَّ ترك السواك عند غسل الفم بعد الطعام، يعدُّ هجراً للسنة! وغيرها من أمثلة: كاستخدام أدوات القتال، فإعداد ما استطعنا من قوة هدفٌ ثابت، ووسيلته متغيِّرة، فقديماً كان السيف، واليوم الصاروخ والدبابة، فليس استخدام السيف هو السنَّة إذن، إنما السنة بل الفرض: استخدام أحدث أدوات القتال، وهكذا.

سادسها: **التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث**: ومن الأمور المهمة لفهم السنة أن نفرِّق بين ما هو مجازي وما هو حقيقي، فإنَّ السنة جاءت باللغة العربية، ولغة العرب فيها قسم كبير من المجاز، وهو في القرآن كذلك بكثرة، فمن المجاز في القرآن مثلاً: قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّ

﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، فهل معنى ذلك أن المشركين أدخلوا أصابعهم كاملة في طبلة أذنهم؟ أم أنه مجاز عن شدَّة سدِّ الأذن حتى لا تسمع كلام نوح عليه السلام عن توحيد الله وعبادته، ضرب الشيخ عدة أمثلة على المجاز في السنة، ومنها قوله ﷺ: «أَسْرَعُكُنَّ لحوقاً بي أطولُكُنَّ يداً»، فهل معنى الحديث أنَّ أطولهن يداً طول حقيقي أم مجازي؟ المعنى الصواب: أنه يقصد بالطول هنا ليس الطول الحقيقي، إنما طول اليد في فعل الخير، وبذل المعروف.

سابعها: التفريق بين الغيب والشهادة: وهذا ضابطٌ مهمٌّ في فهم السنَّة، وقد وقع كثير من المعاصرين، في قياس الغيبيات على الشواهد، مما أوقعهم في أخطاء جسيمة في فهم السنة.

ثامنها: التأكُّد من مدلولات ألفاظ الحديث: فحتى تفهم السنة جيداً لا بدَّ من البحث عن معنى اللفظ الوارد فيها، ما المقصود منه؟ فكم من لفظ فُسِّر خطأ، وبُني على هذا التفسير أحكام، فلا بد إذن من التأكُّد من مدلول اللفظ.

خذ مثلاً كلمة (تصاوير) التي وَرَدت في كثير من الأحاديث النبوية، هل تدخل الصور الفوتوغرافية فيها أم لا؟ وبخاصة أنها لم تكن على عهد النبيِّ ﷺ، فليس معنى اتفاقها في اللفظ مع كلمة (تصاوير) التي في الأحاديث أن تأخذ نفس المعنى، وبالتالي نفس الحكم، أم أنَّ المقصود بها التماثيل، وهذا هو الأليق والأوقع لمعنى الحديث. وهكذا بقية الألفاظ في أحاديث النبيِّ ﷺ.

* * *

٧ ـ السنَّةُ مصدراً للمعرفة والحضارة

هذا الكتابُ من أهمِّ الكتب الموجودة في مكتبة السنَّة النبويَّة، من حيث تناولُ السنة من جهة ربطها بالعلوم العصرية، وشرحها وإزالة الغموض عنها، وإثبات أنها تخاطب كل عصر بما يلائمه، ولا تنافي العصرية.

ففي هذا الكتاب غاص الشيخ في أعماق السنَّة النبويَّة المطهَّرة، واستخرج كميةً هائلةً من لآلئها، لتنتظم جميعها في عِقْدٍ يُبرز جمالها، ممَّا أدهش أحد علماء البيئة، عندما تحدث معه الشيخ عن حفاظ الإسلام على الأجناس الحيَّة من الانقراض، مُسْتَدِلاً بحديث النبيِّ ﷺ: «لولا أنَّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا الأسود البهيم»[1]. وبعد أن ذكر له الشيخ ما يؤيِّد ذلك أيضاً من نصوص أخرى من السنة، قال له أستاذ البيئة: «عجيبٌ أن يكون عندنا مثل هذه الكنوز الثمينة، ولا نطَّلع عليها، ولا نعرفها!».

بدأ الشيخ كتابه ببيان السنة التشريعية وغير التشريعية، وهل في السنة ما هو من باب التشريع، وما ليس من باب التشريع؟ وهي قضيَّةٌ أثارت جدلاً طويلاً في العصر الحديث، بين من يريدون إعطاء السنَّة جميعها، بل وتصرُّفات النبيِّ ﷺ كلها خاصيَّة التشريع.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٤٥)؛ والترمذي (١٤٨٩)؛ والنسائي (٤٢٨٥)؛ وابن ماجه (٣٢٠٤) كلهم في كتاب الصيد، وقال الترمذي: حديث حسن، وذكره الألباني في (صحيح الجامع الصغير).

أخذ الشيخ يسرد نصوص العلماء الأقدمين في كلامهم على السنة التشريعية، وإثبات أنَّ هناك من السنة ما هو من باب التشريع، وما ليس من باب التشريع، إنما من باب البشريَّة المَحْضَة، أو من باب الرياسة والسياسة، أو من باب الإرشاد فقط. وقد استعرض أقوال معظم العلماء من السابقين والمعاصرين، بدايةً بابن قتيبة وانتهاءً بالشيخ شلتوت وغيره.

ثم تناول الشيخ في القسم الثاني من الكتاب: السنة مصدراً للمعرفة، فتناول السنة كمصدر للمعرفة الدينية، من إيمان بالغيب وما يتشعَّب منه، وناقش قضية (خبر الآحاد) وهل يفيد اليقين أم الظن؟ ثم بيَّن دور السنة في تبيين أنواع الغيوب، من حيث الإيمان بالله وصفاته وأفعاله جلَّ وعلا، ومن حيث الإيمان بالملائكة، وما يتعلَّق بهم، وحديث السنة عن اليوم الآخر، وما فيه من حساب وعرض، وشفاعة.

ثم ركَّز الشيخ حديثه على المعارف الإنسانية التي تناولتها السنة، ولأجل كثرتها اكتفى بتناول ثلاثة أنواع منها: التربية والصحة والاقتصاد.

ثمَّ عَرَضَ الشيخ للسنَّة كمصدرٍ للحضارة، ومدى علاقة السنة بالفقه الحضاري، ودعوة السنة النبوية لفقه الآيات والسنن الكونية، ثم تكلَّم عن السنة والسلوك الحضاري.

وفي ختام الكتاب بيَّن أن السنة بحاجة إلى كثير من هذه الدراسات التي تُبْرِزُ نصاعَتَها، وتُبرزها للناس، فالقرآن الكريم خُدم كثيراً في هذا المجال، ولا تزال الدراسات الحديثية في هذا المجال بِكْراً، وتحتاج إلى عدة دراسات، ورسائل ماجستير ودكتوراه.

تعقيب:

ولنا تعقيب على الباب الأول من كتاب الشيخ، فقد لاحظت في الكتاب هذه الملاحظة، وهي: أنَّ قارئ الفصل لا يشعر بالإحاطة والشمول

المعهود في بحوث وكتابات الشيخ القرضاوي في مثل هذه البحوث، فالشيخ معروفٌ بأنه إذا تناول قضيّةً شائكة كهذه القضيّة، إنما يؤصِّل ويضع الضوابط والمحاذير، ولم نرَ شيئاً من هذا في بحث الشيخ عن السنَّة التشريعية، فقد اكتفى بإثبات أنَّ من السنة ما يكون تشريعاً وما ليس بتشريع، وإن كانت الضوابط موجودة في البحث، فقط تحتاج إلى إبراز لها وعنونة وترتيب. وهذا باعتراف الشيخ نفسه في نهاية البحث حيث قال:

«فبعد إثبات مَبْدأ التقسيم ـ كما ذكره المحقِّقون من القدماء والمحدثين ـ الذين نقلنا أقوالهم في دراستنا هذه ـ تبقى سلامة التطبيق على ما وَرَدَ في السنَّة، فهنا مَزِلَّةُ القدم، وهنا يقع الإفراط والتفريط، اللذان لا يسلم منهما إلا مَنْ رزقه الله البصيرة، وعمقَ الفهم لمقاصد الشريعة، والربط بين كليّاتها وجزئيّاتها، بعد التحرُّر من اتِّباع هوى النفس أو أهواء الغير، واستفراغ الجهد في البحث والاطِّلاع على النصوص، ومعرفة صحيحها من سقيمها، بُغْية الوصول إلى الحق، «ومن يرد الله به خيراً يفقهه الدين»».

كما أنَّ الكتاب يتحدَّث عن السنة كمصدر للمعرفة والحضارة، ولم يعلن الشيخ في عنوان البحث أنَّ من موضوعاته التشريع، فما دخل السنة التشريعية بالحضارة والمعرفة؟ ليْتَ الشيخ يفصل هذا البحث من الكتاب، ويضعه في رسالةٍ مستقلة، يُسْهِبُ فيها، تعميقاً وتأصيلاً، فأنا أعلم أنَّ الشيخ عنده أكثر ممَّا كتب في هذا الموضوع، وهو حَرِيٌّ بأن يُكْتب في كتاب على حِدة. فهذه القضية التي قلَّ أن يطرقها عالم يتَّصف بالرَّصانة، ويجمع معها الجرأة والشجاعة في الإعلان برأيه، فكم من عالمٍ اقتنع في قرارة نفسه بأن في السنة ما هو تشريع، ومنها ما ليس بتشريع، لكنه يخشى من أن تناله أقلام سَتَتَّهمه بأنه يهاجم السنّة.

فليت شيخَنا القرضاوي يلبِّي هذه الرغبة، فهو لها أهلٌ، وقلمُ القرضاوي جديرٌ بالكتابة فيها، فهو قلمٌ يجمع بين الرَّصانة، والتمكُّن العلمي، والانضباط بضوابط الشرع دون تجاوز، والجرأة في العرض دون وَجَل.

* * *

٨ ـ الصحوة الإسلامية

بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم

هذا الكتاب من الكتب المهمَّة لترشيد الصحوة الإسلامية، فهناك عدة أنواع من الفقه مطلوبٌ من أبناء الصحوة أن يُتقنوها، ويتعمَّق فهمهم لها، وهي: فقه النص، أي: فهم نصوص الإسلام من القرآن والسنة، فهماً صحيحاً بلا سطحية، وفقه النفس، أي: تزكيتها والرقي بها؛ وفقه البدن، وهي: تربية النفس على التربية الجهادية؛ وفقه الأولويات، كي يعرف أبناء الصحوة ما حقه التقديم، وما حقه التأخير، وفقه الواقع، وفقه السنن الكونية، وأخيراً فقه الاختلاف. الذي ألَّف الشيخ هذا الكتاب تأصيلاً له وتعميقاً.

وقد ألَّفه الشيخ بطلب من المنظمين لمؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكة في عام ١٩٨٩م، وكان من أهم الدوافع وراء تأليفه: حرص الشيخ على تعميق آداب الاختلاف عند أبناء الصحوة الإسلامية، الذين باتوا متفرِّقين في أمور ليست من مواطن التفرُّق، وقد سدَّ ثغرة في موضوعات الصحوة الشائكة، وعالج خَلَلاً طالماً وقع فيه أبناء الصحوة، فكثيرٌ منهم لم يكن يُميِّز بين ما يجوز فيه الاختلاف، وما لا يجوز، ولم يعرفوا كيف نختلف ولا نتفرّق؟ هذا الكتاب يجيب على هذا السؤال.

وقد سبق كتابَ الشيخ كتابٌ لصديقه الدكتور طه جابر العلواني، غير أن كتاب الدكتور طه يهتمُّ بالجانب التاريخي في (أدب الاختلاف) وكتاب الشيخ اهتم بالناحية التأصيلية لفقه الاختلاف.

في بداية الدراسة أكّد الشيخ على أن الاتّحاد والترابط فريضة دينية، دعا إليها القرآن الكريم فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

ودعت إليه السنة النبوية المطهَّرة في عدة أحاديث، بيّنت أهمية الاتحاد، وحذّرت من الفرقة والتشرذم، فقال ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال: أمة محمد ﷺ ـ على ضلالة، ويدُ الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار». وقال: «من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية».

والإسلام يحرص على الجماعة والوحدة لأن الاتحاد يقوّي الضعفاء، ويزيد الأقوياء قوةً على قوتهم. كما أنه عصمةٌ للفرد من الهَلَكة، فالفرد وحده يمكن أن يضيع، ويمكن أن يسقط، ويفترسه شياطين الإنس والجن، ولكنه في الجماعة مَحْميٌّ بها.

ونفى الشيخ أن يكون تفرق الأمة قَدَراً لازماً أو دائماً، وأنه لا أساس لما يستشهد به أصحاب هذا الرأي، وإن كان لهم دليل من السنة وهو حديث: «افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». فقد ناقش الشيخ الحديث من ناحيتين: من ناحية سنده، ومن ناحية معناه، أما عن سنده فقد اختلف علماء التخريج قديماً وحديثاً في سنده، ما بين مضعِّف ومُحَسِّن لسنده، أما عن فقهه: فقد يكون الحديث يقصد فترةً من فترات تاريخ الأمة، تتواجد فيها هذه الفرق ثم تنقرض، أو أن المقصود بالأمة هنا: أمة الدعوة لا أمة الإجابة.

الدعائم الفكرية لفقه الاختلاف:

ثم بيّن الشيخ أنّ لفقه الاختلاف دعائمَ فكرية، ودعائمَ خلقية، أما عن الدعائم الفكرية فهي:

١ ـ الاختلاف في الفروع ضرورة ورحمة وسَعَة: فالاختلاف في الفروع ضرورة، أوجبتها طبيعة الدين الذي جعل الله نصوصه تحتمل أكثر من فهم، وأكثر من رأي، وضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦] هل المقصود هنا: لَمْسُ البشرة للبشرة؟ أم أنه كما قال ابن عمر: إنَّ الله حَيِيٌّ يكنّي بما شاء عمَّا شاء، فكنَّى عن الجماع باللمس؟

وهو ضرورة أوجبته طبيعة البشر، فالبشر ليسوا نسخاً كربونية متكرِّرة، فكل إنسان له طبيعته، هناك إنسان طبيعته المَيْل للتشديد، وآخر طبيعته المَيْل للتيسير، ولذا اشتهر في تراثنا الفقهي: شدائد ابن عمر، ورُخَص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود.

والاختلاف ضرورة أوجبته اللغة العربية التي تحتمل وجوهاً عدة لكل مفردة من مفرداتها.

وضرورة أوجبتها طبيعة الكون والحياة، فالكون كلُّه مختلف ولا شيء فيه ليس فيه اختلاف، إلا الله سبحانه وتعالى الواحدُ الأحدُ الفردُ الصَّمد.

وهو رحمةٌ واسعة؛ لأنَّ الاختلاف في الفروع يجعل الناس في بحبوحة من أمرهم، فالإنسان سيجد أكثر من رأي، يستطيع أن يأخذ بواحد منهم دون إثم أو حرج.

وهو ثروةٌ كذلك، لأنَّ الاختلاف في الفروع خلَّف لنا ميراثاً ضخماً من أقوال العلماء والفقهاء، وهو ثروةٌ قانونية لا توجد في أمة من الأمم السابقة ولا اللاحقة.

٢ ـ اتباع المنهج الوسط وترك التنطُّع في الدين: وممَّا ينبغي الحرص عليه لتوحيد صف الداعين إلى الإسلام: اتِّباع المنهج الوسط، الذي يتجلَّى فيه التوازن والاعتدال، بعيداً عن طرفي الغلوِّ والتفريط، وهو الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقول علي بن أبي طالب: «عليكم بالنمط الأوسط، يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي».

ولا بدَّ أيضاً من اجتناب التنطُّع في الدين، وهو ما أنذر به النبيُّ ﷺ أصحابه بالهلاك حينما قال لهم: «هلك المتنطِّعون» قالها ثلاثاً[١].

والمتنطِّعون هم: المتعمِّقون المُغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. والتنطُّع له عدة أشكال بيَّنها الشيخ حفظه الله.

٣ ـ التركيز على المُحْكمات لا المُتَشابِهات: وهو مما يُعين على الائتلاف، ويُبعد عن الفرقة والاختلاف، فاتِّباع المُحْكَمات، واتِّخاذها الأصل والقاعدة في التفكير والسلوك من شأن الراسخين في العلم، واتِّباع المتشابهات من شأن الذين في قلوبهم زَيْغ ودَخَل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

٤ ـ تجنُّب القطع والإنكار في المسائل الاجتهادية: كما أنه ليس لإنسان أن ينكر في مسألة مختلف فيها، ولا أن يقطع فيها بصحة رأيٍ دون الآخر، وهذا مما يعين على الاتفاق والائتلاف. وكثيراً ما اختلف الصحابة في الرأي، وذهب كلٌّ منهم إلى رأيٍ يخالف رأيَ الآخر، ولم يعلم عنهم

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أنَّ صحابياً أنكر على الآخر. وهذا كثيرٌ في حياة السلف الصالح، وإلا كيف وسعت دولة الإسلام أن يوجد بها هذه المذاهب الإسلامية، ولم ينكر أحد منهم على الآخر.

٥ ـ **ضرورة الاطِّلاع على اختلاف العلماء**: وممَّا يعين على التسامح وتبادل العذر فيما اختلف فيه: الاطلاع على اختلاف العلماء، ليعرف منه لماذا اختلفوا؟ وكيف اختلفوا؟ وما أدلتهم على اختلافهم؟ وليوقن القارئ أن القضية ليست موضع إجماع، فيسعه عدم الإنكار. ولذا قال فقهاؤنا: لم تشم أنفه رائحة الفقه من لم يعرف اختلاف الفقهاء! وقالوا: من لم يعرف اختلاف العلماء فليس بعالم. ومن يطَّلع على كتب المذاهب يعلم أن قضايا الإجماع قضايا ضئيلة جداً، ولن يعرف هذا إلا باطلاعه على كتب المذاهب، ويرى فيها اختلاف الفقهاء.

٦ ـ **تحديد المفاهيم والمُصْطلحات**: ومن الأمور المهمة لتقريب شقة الخلاف بين المسلمين عامة، وبين الفصائل العاملة للإسلام خاصة: تحديد (المفاهيم) فكم من نزاع حول معنى أو مفهوم معين، لو حُدِّد بدقة بجلاء لأمكن للطرفين أن يلتقيا عند حدٍّ وسط.

ومن ذلك: مصطلحات الكفر والإيمان، والشِّرك والنفاق والجاهلية، وما يحوم حول هذه المعاني. فبيان الفرق بين كفر العمل، وكفر العقيدة، ونفاق العمل، ونفاق العقيدة، ومايكفر به المرء وما لا يكفر به، هذا تفريق مهم. والجاهلية والمقصود بها، هل هي جاهلية زمان؟ أم جاهلية حال، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. ومصطلح الجماعة، ومخالفة الجماعة، ما المقصود منها؟ كل هذه مصطلحات ومفاهيم إذا تُركت رَجْرَاجة دون أن تثبت في قالبٍ واضح، ستظل موضعَ نزاعٍ وخلاف، ومن أسباب اتِّساع الشقة والفرقة بين العاملين للإسلام، فينبغي توضيحها وتبيينها.

٧ ـ **شغل المسلم بهموم أمَّته الكبرى**: وممَّا يعُين على الاتفاق والائتلاف: شغلُ النفس بالهموم الكبيرة، والآمالِ العظيمة، والأحلام الواسعة، فإذا فرغت الأنفس من الهموم الكبيرة، اعتركت على المسائل الصغيرة، واقتتلت ـ أحياناً ـ فيما بينها على غير شيء!.

وهذا ما فعله أهل العراق ذهبوا ليسألوا ابن عمر في دم البعوض، وأيديهم ملوَّثة بدم الحسين!.

فما أكثر هموم الأمة لو شغلنا أنفسنا بها، فهناك عدَّة هموم وهي: همُّ التخلُّف العلمي والتكنولوجي، همُّ التظالم الاجتماعي والاقتصادي، همُّ الاستبداد والتسلُّط السياسي، همُّ التغريب والغزو الفكري والثقافي، همُّ العدوان والاغتصاب الصهيوني، همُّ التجزئة والتمزُّق العربي والإسلامي، همُّ التسيّب والانحلال الخلقي.

كلُّ هذه هموم ياحبذا لو شغل المسلمون أنفسهم بها، بدل الخلاف حول أمور يسع الجميع أن يعملوا بأحد الآراء فيها.

٨ ـ **التعاون في المُتَّفَق عَلَيه**: فما أكثر ما اتَّفق عليه المسلمون، وما أقلَّ ما اختلفوا فيه، لو قيست مساحة الاتِّفاق ومساحة الاختلاف! فلسنا مختلفين في وجوب دعوة الإسلام وتبليغها إلى غير المسلمين، ولسنا مختلفين في الفرائض، ولا في الكبائر، فلنتفق على الدعوة إلى الفرائض، ومحاربة الكبائر. وهكذا ما أكثر نقاط الاتفاق بيننا نحن المسلمين.

٩ ـ **التسامح في المُخْتَلَف فيه**: إذا كان التعاون في المُتَّفق عليه واجباً. فَأَوْجب منه التسامح في المختلف فيه. وبهذا تكتمل القاعدة الذهبية بشقيها، وهي القاعدة التي صاغها العلامة المجدِّد محمد رشيد رضا التي تقول: «نتعاون فيما اتَّفقنا عليه، ويعذر بعضناً بعضاً فيما اختلفنا فيه».

وهذا التسامح المنشود بين المسلمين بعضهم البعض، يقوم على جملة مبادئ، منها:

أ ـ احترام الرأي الآخر، بحيث لا نحقر رأياً مهما كان مخالفاً لرأينا.

ب ـ إمكان تعدُّد الصواب، وليكن شعارنا في ذلك ما قاله الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيُ غيري خطأ يحتمل الصواب».

١٠ ـ **الكفُّ عمَّن قال (لا إلـه إلا الله)**: فلا بـدَّ من كفِّ الأيـدي والألسنة عن كل من نطق بهذه الشهادة، التي عَصَم الإسلام بها الدماء والأموال والأنفس، كما ورد في الحديث الصحيح. بل عندما قتل أسامة ابن زيد رجلاً نطق بالشهادتين، ولما سئل في ذلك قال: إنما قالها تعوُّذاً من السيف، قال له ﷺ: «هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟! كيف بك بلا إلـه إلا الله». فلا بد من كفِّ الأيدي والألسنة عن أهل القِبلة جميعاً.

الدعائم الأخلاقية لفقه الاختلاف:

بعد أن بيَّن الشيخ القرضاوي الدعائم الفكرية لفقه الاختلاف، نبَّه على دعائم أخرى لا تقل أهميةً عن الدعائم الفكرية، بل هي مكمِّلة لها، وهي الدعائم الخلقية، وهي كالتالي:

١ ـ الإخلاصُ والتجرُّد من الأهواء.

٢ ـ التحرُّر من التعصُّب للأشخاص والمذاهب والطوائف.

٣ ـ إحسانُ الظنِّ بالآخرين.

٤ ـ تركُ الطعن والتجريح للمخالفين.

٥ ـ البُعْدُ عن المِراء واللَّدد في الخصومة.

٦ ـ الحوارُ بالتي هي أحسن.

* * *

٩ ـ الصَّحوة الإسلامية بين الجحود والتطرُّف

هذا الكتاب من الكتب التي ألَّفها الشيخ، ولاقت استحسان عددٍ كبير من علماء المسلمين، شأنه شأن معظم كتب الشيخ، فقد أثنى على الكتاب الشيخ الغزالي رحمه الله، والأستاذ فهمي هويدي، والأستاذ أحمد بهجت، وغيرهم من مفكري الأمة الإسلامية، وسرُّ حفاوتهم بالكتاب أنه صَدَر عن رجلٍ غيور على الصحوة الإسلامية، فقد أمضى زَهرة عمرِهِ في ترشيدها، والنهوضِ بأبنائها، والتحذيرِ لها ممَّن يتربصون بها، ويمكرون لها.

وأيضاً لأنَّ مؤلفه كان مُعتدلاً في تناوله لهذه القضية الخطيرة، التي يقفُ كثيرٌ ممَّن يتناولونها موقفاً ليس بالوسط، فهو إما مع ما يرتكبه الجامدون المسيئون للإسلام بتصرُّفاتهم، وإما مع ما تفعله السلطة في قمع هذه الظواهر، ولذا كانت وسطية الشيخ القرضاوي في تناول الموضوع موضع تقدير وإعجاب.

بدأ الشيخ كتابه بالفصل الأول، الذي بيَّن فيه معنى التطرُّف، وتحذير الإسلام منه، وأنه من الغلوِّ الذي نهى الإسلام عنه، بل هو لونٌ من ألوانه، ومن عيوب وآفات الغلو في الدين: أنه مُنَفِّر لا تحتمله طبيعة البشر العادية، وتصبر عليه، فالإنسان بطبعه يميل إلى الاعتدال، كما أنَّ عمره قصير لا يدوم طويلاً، ومن عيوبه كذلك أنه لا يخلو من جَوْرٍ على حقوق أخرى يجب أن ترعى. ونفى الشيخ ما يطلقه البعض على المتشدِّد ـ في رأيٍ من الآراء، بناء على دليل معتبر لديه اقتنع به ـ بأنه متطرِّف.

كما بيَّن الشيخ أن للتطرُّف مظاهر ودلائل، وهذه المظاهر هي:

١ ـ **التعصُّب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر** : وهذه من أشدّ آفات التطرُّف، إنَّ المتطرف شخصٌ لا يقتنع إلا برأيه، ولا ينظر إلى رأي الآخرين إلا على أنه رأيٌ صَدَر ممَّن هو دونه في العلم والفكر.

٢ ـ **إلزام جمهور الناس بما لم يلزمهم به الله** : فالمتطرِّف دائماً يميل إلى التشدُّد، وإلى فرضه على الناس، وهذا ليس بمنهج النبي ﷺ الذي ورد عنه: أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أَيْسَرهما ما لم يكن إثماً. بل قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، حينما أطال بالناس في الصلاة: «أفتَّان أنت يا معاذ»؟!

٣ ـ **التشدُّد في غير محلِّه** : وممَّا يُنكر على من يتشدَّدون في الدين، أن يكون تشدُّدهم في غير محله، كأن يكون في غير دار الإسلام وبلاده الأصلية، أو مع قومٍ حديثي عهد بإسلام، أو مع أناسٍ كانوا من أهل المعاصي، ومَنَّ الله عليهم بالتوبة.

٤ ـ **الغِلظة والخُشونة** : كما أنَّ من صفات المتشدِّدين أنهم غلاظٌ خشنون في تعاملهم مع الناس، وتبيين الأحكام لهم، فالقسوة والغلظة وسيلتهم التي يطبقون بها أحكام الإسلام، على الرغم من أن الإسلام لم يُنادِ بها، إنما أمر بـ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٥ ـ **سوء الظنِّ بالناس** : فهم دائماً ينظرون للناس من منظار أسود، والأصل أن كل عمل يصدر من أيِّ إنسان أن يُساء فهمه، ولا يلتمسون له العذر.

٦ ـ **السقوط في هاوية التكفير** : ولعلَّ هذه السِّمَة هي أخطر مظاهر التطرُّف والغلو، وهي اتهام الناس بالكفر، أو المروق من الدين، والخروج منه، لمجرَّد أن يخطئوا أو يقترفوا كبيرة من الكبائر.

ثم بعد ذلك تناول الشيخُ الأسباب التي أدَّت إلى التطرُّف الديني، وبيَّن أنه لا بدَّ من البحث عن أسبابه، ولا بدَّ من النظرة المتكاملة إلى هذه الأسباب.

وقد بيَّن الشيخ أنَّ أُولى أسباب التطرُّف وبواعثه، هو: ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وأنَّ ذلك مما أصاب الإسلام في الآونة الأخيرة، فقد ابتلي الإسلام بأناسٍ فهموا الدين خطأً، أو أناس طبقوا الإسلام خطأً! فمن الناس من فهم الإسلام فهماً ظاهرياً دون تعمُّق في مقاصده وأسراره، وقد ترتَّب على ذلك أن اشتغل الذين لم يفهموا الإسلام فهماً صحيحاً أن اشتغلوا بالمعارك الجانبية عن قضايا الأمة الكبرى.

وعلَّل الشيخ الأسباب التي جعلت هؤلاء الشباب لا يفهمون الدين فهماً صحيحاً، وهو أنهم أخذوا العلم من غير أهله، وذلك نتج عن إعراضهم عن العلماء، وذلك لما رآه الشباب في بعض رموز الدين، وتهاونهم في أمر الشرعِ، وممالأتهم لحكام السوء، ممَّا أعطى صورةً شائهة عن عالم الدين، فعَزَف كثير من هؤلاء الشباب عنهم، فأخذوا العلم من غير أهله، أو اعتمدوا على فهمهم للنصوص والكتب، فكان فهماً سطحياً.

ومن الأسباب كذلك: ضعفُ المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون والحياة، فهم لا يعتبرون بأحداث الماضي، ولا يأخذون منها ما يُعينهم على حاضرهم، تراهم يفكرون في تغيير المجتمع من غير دراية بالواقع المعيش، ولذا يعيشون في وادي، والناس والدنيا كلها في وادٍ آخر.

ولعلَّ من أهم الأسباب كذلك تلك الغُربة التي يعيشها الإسلام في دياره، فالمتديِّن في كثير من بلاد المسلمين يُحارَب ويُبْتلى في دينه، ويبحث عن السبب وراء ابتلائه، فيجد العلَّة في تديُّنه، ممَّا يشعر بالفصام النكد بين ما يأمره به دينه، وما تفعله الحكومات الإسلامية في الحركات

الإسلامية، من اعتقال وتعذيب ومطاردة في الحياة اليومية. كما يرى في الإعلام في كل هذه الدول حرباً شعواء على الإسلام والمتدينين.

وحذَّر الشيخ من مقاومة التطرُّف بالتعذيب، فهذا لن يأتي إلا بنتيجة عكسية، ولن يفرِّخ إلا تطرُّفاً أشد وأعتى.

ولم يقف الشيخ القرضاوي عند حدِّ وصف الداء، دون وصف الدواء الناجع، فمن العلاج ما يقوم به المجتمع ومنه ما تقوم به الدولة، فعلى المجتمع أن ينتهي عن تناقضه، بألا يكون مجتمعاً مسلماً بالاسم، دون التزامه بالإسلام، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً.

وعلى الحكام أن يرجعوا إلى الله ويطبِّقوا الإسلام، وأن يتوقَّفوا عن حربهم ضد الدين ومظاهر التديُّن، وأن تعاملهم الدولة ـ والمجتمع كذلك ـ بروح الأبوة والأخوة، ولا بدَّ من عدم التطرُّف في تصوير التطرُّف، وإعطائه حجماً أكبر من حجمه، وعلى الدولة أن تفتح أبواب الحرية، ليتنسَّمَها الشعب. كما حذَّر الشيخ من خطورة أن نقابل التكفير بتكفير مُمَاثل، فعندئذ سنستوي مع من تطرَّف في تكفير المجتمع والناس!

وعلى الشباب أن يتعمَّق في فهم الإسلام، ويفهم أنَّ لكل عمل في الإسلام له تسعيرة، وله مرتبة ودرجة، فليست كل أوامر الإسلام ولا نواهيه في درجةٍ واحدة، ولا بدَّ لهم من توافر آداب الاختلاف فيهم، فإنَّ من أهم مظاهر وسمات المتطرف: الضيق بالرأي الآخر.

ثم أسدى الشيخ في نهاية الكتاب جملةَ نصائحَ أبويَّةٍ، تدلُّ على حُرقة الشيخ على الصحوة، وخوفهِ مِن أن تتآكل من داخلها، وأن يكفِّر بعضهم بعضاً، وأن يبغض بعضهم بعضاً. وعليهم بأن يحترموا التخصُّص، وأن يأخذوا العلم عن أهل الورع والاعتدال، وأن يُعايشوا الجماهير، وأن يُحسنوا الظنَّ بالناس.

* * *

١٠ ـ أمّتنا بين قَرنَيْن

من عادة الأمم المتحضِّرة أن تُجري بعد كلِّ فترةٍ من الزمن: كشفَ حساب، أو نقداً للذات، وهو ما نسمِّيه في ديننا الإسلامي الحنيف: محاسبة النفس، وجاء كتاب الشيخ القرضاوي من هذا الباب، فهو محاسبةٌ للأمة الإسلامية، في القرن الماضي، ماذا فقدت من مكانةٍ؟ وماذا فعلت لاسترداد ما ضاع منها؟ وماذا ينتظرها من تحديات؟.

في البداية بيَّن الشيخ إنجازات البشرية ـ بوجهٍ عام ـ في القرن العشرين، وأنها أحدثت طَفْرةً في الإنجازات، ففي هذا القرن أنجزت البشريةُ إنجازاتٍ علميةً كبرى، من تقدُّمٍ في الصناعة، وتقدُّمٍ في العلم بعامة، بل حَدَثت عِدَّة ثورات علمية، منها الثورة البيولوجية، والثورة الإلكترونية، وثورة الاتِّصالات... إلخ.

كما أنجزت البشرية إنجازاً هائلاً في قضية الحريات وحقوق الإنسان، من حيث تقنينُ القوانين العالمية التي باتت تحفظ الحقوق، وتردُّ الحقَّ لصاحبه. بَيْد أن مواثيق الحقوق والحريات في بلاد الغرب، يَعْتَوِرُه عدَّة أخطاء فجَّة وواضحة، وإن دلَّت فتدلُّ على خلل في رؤوس الغربيين، وفي مكاييلهم التي يتعاملون بها في القضايا، ففي الوقت الذي يتنادى الغرب بالحرية، نجده يقف ضدَّ هذه الحرية إن كانت للمسلمين، بل أخفق الغرب في ردِّ الحقوق لأهلها في قضيَّة تعدُّ من أشهر قضايا القرن العشرين، وهي قضيَّة فلسطين وردِّها لأهلها، فقد مكَّن الغربُ اليهودَ من فلسطين.

كما امتاز هذا القرن بأنه قرنُ انهيار القيم والأخلاق، من انحلال وتسيُّب، وتدنّي في الحالة الدينية.

وامتاز هذا القرن بأنه قرنُ الحروب والدماء، فقد قامت فيه حربين عالميتين، أزهقت فيه ملايين الأرواح.

ثم أسهب الشيخ في بيان إنجازات الأمة الإسلامية على وجه الخصوص، وقد كان لأمتنا في هذا القرن إنجازات عدة، منها: التحرُّر من الاستعمار، فقد تحرَّرت فيه كلُّ - أو جُلُّ - الدول المسلمة من نيْر الاستعمار، ولكنه لم يكن تحرراً كاملاً من حيث تحرير الأرض، فهناك فلسطين التي ما زالت ترزح تحت وطأة الاحتلال الصهيوني. بل حتى الدول المسلمة التي حُررت من الوجود العسكري، فقد خرج العسكريون منها، ولكن بقي فكر الاستعمار في رؤوس أبناء المسلمين، الذين غزاهم الاستعمار، فصاروا يتكلمون بلسانه، ويتحركون بدلاً منه، بل ربما تحرَّك المستعمر في أرض الإسلام بوجل، ولكن أتباعه من بني جلدتنا لا يجدون هذا الحرج في نشر أفكاره وفلسفته[١].

كما أنجزت أمتنا في مجال التعليم، فقد انتشر التعليم في الأمة الإسلامية، وخاصة مجانية التعليم.

ومن أهم إنجازات الأمة الإسلامية في القرن الماضي: ظهور حركات التجديد الإسلامي، من جماعة الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية، وغيرهما من الجماعات التي تتبنَّى الإسلام الشامل، وأبرزت

---

(١) رحم الله شيخنا الغزالي الذي كان يقول عن أتباع الغزو الفكري: إن المستعمر بعد أن رحل عن بلادنا يجر أذيال الخيبة، أراد أن ينشر فكره بيننا، ولكنه يخشى أن يدوس بقدمه أرضنا فيصاب بأذى، فاستأجر نعالاً يلبسها حماية لقدمه، فكان هؤلاء الأتباع، إنهم سماسرة الاستعمار الغربي.

هذه الحركات دورها في مقاومة التغريب، والعودة بالمسلمين إلى الاعتزاز بما آتاهم الله من وحيٍ معصوم.

كما أنَّ من إنجازات الأمة بجوار حركات التجديد: انطلاق الصحوة الإسلامية، وليست الصحوة مقتصرةً على الرجال دون النساء، بل هي صحوةُ رجال ونساء، وصحوةُ عقل وعاطفة، وهي صحوةٌ عامة شعبية، ولها عِدَّة إنجازات كثيرة لا تعدُّ ولا تُحصى، منها ما كان في مجال الفكر، ومجال الاقتصاد، والسياسة، وغيرها.

وفنَّد الشيخ فرْية أن تكون الصحوة من تدبير أو تخطيط زعيم أو حاكم، كما يزعم الشيوعيون أنَّ الصحوة في مصر انطلقت في نهاية السبعينيات بسبب أنَّ الرئيس السادات أراد أن يضرب اليساريين بالإسلاميين، وهذا خلط للأمور، وزَعْم لا دليل عليه

ثم انتقل الشيخ للحديث عمَّا أخفقت فيه الأمة الإسلامية في القرن الماضي، وأرجع الشيخ أسباب الإخفاق إلى ما بداخل الأمة، ولم يرجع ـ كما يفعل أنصار التفسير التآمري للتاريخ ـ الأسباب لأمور خارجية.

من إخفاقات الأمة في القرن الماضي: ضياع خلافة المسلمين، التي كانت على ضعفها من عوامل توحُّد الأمة، والالتفاف حولها، فبضياعها أصبح المسلمون كأيتام بلا أب، وصاروا عرضة لنهش من لا يملك الدفاع عن نفسه، ونتَج عن ذلك هزيمة المسلمين أمام المشروع الصهيوني، اليهود أخسُّ خلق الله، وهم أقلُّ عدداً من المسلمين، دخلوا فلسطين ودنَّسوا المقدَّسات، وعَجَزَ المسلمون على كثرة دولهم أن يستردُّوا شبراً واحداً ممَّا اغتصبه اليهود منهم.

كما أخفقت الأمّة في مسيرة التقدُّم والتنمية، فأصبحت الأمةُ الإسلامية من دول العالم الثالث، بل من الدول المتخلِّفة، بعد أن كانت الأمة الأولى. ونتج عن ذلك أن أخفقت الأمَّة في تحرُّرها من التبعيَّة

للغرب، فقد أصبحت الأمة تابعة في قوانينها وسلوكها لثقافة وقانون الغرب.

كما أخفقت الأمة في مجالاتٍ أخرى منها: الإخفاق في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان، والإخفاق في توحيد الأمة، والإخفاق في تحقيق العدالة الاجتماعية، وفي مجال المرأة، وفي التربية الأخلاقية للأمة.

ثم أسهب الشيخ في بيان التحديات التي تُواجِهُ الأمة، وبيَّن أن هناك تحديات ثلاث من أكبر التحديات التي تواجه الأمة، وهي:

١ ـ **التحدِّي الصهيوني**: هذا الكيان الغاشم الظالم، الذي نَبَت في هذه الأمة كنبات شيطاني، فهو مولودٌ غير شرعي (لقيط) جاء نتيجةَ سفاحٍ جرى بين إنكلترة وأمريكة. وبيَّن الشيخ أن على الأمة أن تُواجِهَ هذا المشروع الصهيوني، فمقاومته فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين بنصوصه وقواعده، وضرورة يحتِّمها الواقع بآلامه وآماله، ضرورة النهوض بالحاضر، والإعداد للمستقبل.

ولابدَّ أن نحارب أعداءنا من بني صهيون بمثل ما يحاربوننا به، فإذا واجهونا باليهودية واجهناهم بالإسلام، وإذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: الأقصى، وإذا قالوا: يوم السبت قلنا: يوم الجمعة، وإذا حشدوا حشودهم باسم موسى حشدنا حشودنا باسم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فنحن أولى بموسى منهم!.

وحذَّر الشيخ من محاولة اختراق الكيان الصهيوني للأمَّة، وذلك عن طريق التَّطْبيع الثقافي والعسكري والاقتصادي، وعلى الأمَّة أن تفيق ممَّا يُراد بها من إزالة الحاجز النفسي الذي بيننا وبين بني صهيون.

٢ ـ **تحدِّي التجزئة والتفكيك**: أما التحدِّي الثاني فهو: المؤامرات

المستمرة من أعداء الأمة لتفكيكها وتفتيتها، بعد أن كانت أمَّةً واحدة، إلى عدَّة دول، وعدَّة أمم، فقد خرج الاستعمار من بلادنا، ولكنه قبل أن يخرج ترك فتيلَ الحرب والفتنة موجوداً، وترك فينا التعصُّب للأعراق والجنسيات والألوان، فهناك في كل دولة الجنوب والشمال، وفي القارات الأبيض والأسود، وفي المذاهب السنة والشيعة، وهذه فخوخ يراد للأمة المسلمة أن تسقط فيها، لتكفي عدوها مؤنة الحرب معها، ويقاتل بعضنا بعضاً.

٣ ـ **تحدِّي العَوْلمة**: أما التحدِّي الثالث والأخير، فهو: تحدي العَوْلمة، والعَوْلمة مُصْطلح حديث ظهر في الآونة الأخيرة، وقد اختلفت وجهات النظر فيه، كما هو معتاد في كثير من القضايا، فهناك من يرفض العَوْلمة ويراها شراً محضاً. وهناك من يقبلها ويرحِّب بها، وينادي بها بشرِّها وخيرِها وحلوِها ومرِّها.

أما عن الموقف الوسط ـ وهو ما تبنَّاه الشيخ ـ فهو أننا لا مفرَّ لنا من هذه العولمة، فيبدو أنها تفرض نفسها علينا في هذه المرحلة، وليس في استطاعتنا أن نرفضها أو نفرَّ منها.

كما لا ينبغي لنا أن نقبَلَها كما هي، ونَسْتَسْلم مُطَأطئي الرؤوس، قائلين: سمعنا وأطعنا.

فالموقفُ اللائق بنا هو الموقف الوسط: الذي يجتهد أن يستفيد من إيجابيات هذه العَوْلمة وانفتاحها، ويأخذ خيرَ ما فيها، وأن يَجْتنب سلبياتها المادية والمعنوية، متحصنين بإيماننا، معتزّين بأنفسنا، عاملينَ بكلِّ ما نستطيع لتطوير قدراتنا، وتحسين إمكاناتنا.

ومعنى ذلك: أن نطوِّر علومنا، ونطوِّر أعمالنا، ونطوِّر مواردنا، ونطوِّر زراعتنا، ونطوِّر صناعتنا، ونطوِّر إدارتنا، وقبل ذلك كله نطوِّر إنساننا الذي هو الوسيلة والغاية للتنمية والتقدُّم، وأن نسعى لتحقيق ذلك

منفردين ومجتمعين. حتى نقوم بدورنا في هذا العالم، ولا نظل عالة أو كَلًّا على غيرنا.

ثمَّ ختم الشيخ كتابه بتفنيد كلام (فوكوياما) في كتابه (نهاية التاريخ) وكلام (صمويل هانتنغتون) في كتابه (نهاية الحضارات) وبيَّن خطأ هذه النظرية، وتساءل الشيخ: هل هو صدام حضارات أم صدام مصالح؟ صدام حضارات أم صدام أديان؟.

* * *

قائمة بمؤلفات الشيخ القرضاوي(١)

أ ـ في العقيدة

١ ـ **الإيمان والحياة**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٢ ـ **وجود الله**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

٣ ـ **حقيقة التوحيد**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤ ـ **موقف الإسلام من كفر اليهود والنصارى**، طبعة مكتبة وهبة.

٥ ـ **الإيمان بالقدر**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٦ ـ **الشفاعة**، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة.

٧ ـ **كمالات الله العلا**، تحت الطبع.

ب ـ في علوم القرآن والسنة

٨ ـ **الصبر في القرآن**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٩ ـ **العقل والعلم في القرآن الكريم**، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

---

(١) لم أرتب المؤلفات حسب الترتيب المعجمي، إنما رتبتُها حسب الموضوعات، كما لم أهتم بذكر تاريخ تأليف الشيخ للكتاب، نظراً لذكر الشيخ في المقدمة تاريخ التأليف. وما أشير إليه بـ * فهو مُستخرج من كتب أخرى للشيخ كما سبق ذكر بعضها في جواب الشيخ عن أسئلتي الموجهة إليه حفظه الله.

١٠ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ دار الشروق.

١١ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟ دار الشروق.

١٢ ـ تفسير سورة الرعد، طبعة مكتبة وهبة.

* ١٣ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية، طبعة مكتبة وهبة.

١٤ ـ المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة، والمكتب الإسلامي بيروت.

١٥ ـ السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، دار الشروق.

١٦ ـ نحو موسوعة للحديث النبوي، تحت الطبع.

١٧ ـ قطوف دانية من الكتاب والسنة، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

جـ ـ في الفقه وأصوله

١٨ ـ الحلال والحرام في الإسلام، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٩ ـ فتاوى معاصرة ج١، دار القلم الكويت، والمكتب الإسلامي بيروت.

٢٠ ـ فتاوى معاصرة ج٢، دار القلم الكويت، والمكتب الإسلامي بيروت.

٢١ ـ فتاوى معاصرة ج٣، دار القلم الكويت، والمكتب الإسلامي بيروت.

٢٢ ـ تيسير الفقه: فقه الصيام، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢٣ ـ الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار القلم الكويت، والمكتب الإسلامي بيروت.

٢٤ ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٢٥ ـ من فقه الدولة في الإسلام، دار الشروق.

٢٦ ـ تيسير الفقه للمسلم المعاصر ج١، طبعة مكتبة وهبة.

٢٧ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيُّب، طبعة مكتبة وهبة.

* ٢٨ ـ عوامل السَّعَة والمرونة في الشريعة الإسلامية، طبعة مكتبة وهبة.

* ٢٩ ـ الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، طبعة مكتبة وهبة.

* ٣٠ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

٣١ ـ زواج المِسْيار، طبعة مكتبة وهبة.

٣٢ ـ الضوابط الشرعية لبناء المساجد، طبعة مكتبة وهبة.

٣٣ ـ الغناء والموسيقى في ضوء الكتاب والسنة، طبعة مكتبة وهبة، تحت الطبع.

٣٤ ـ مئة سؤال عن الحجِّ والعُمرة والأضحية، دار الشروق، تحت الطبع.

٣٥ ـ فقه الأقليّات، دار الشروق تحت الطبع.

د ـ في الاقتصاد الإسلامي

٣٦ ـ فقه الزكاة (جزءان)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة بيروت.

٣٧ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٣٨ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٣٩ ـ فوائد البنوك هي الربا الحرام، طبعة مكتبة وهبة.

٤٠ ـ دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

هـ ـ في تيسير فقه السلوك

٤١ ـ الحياة الربانية والعلم، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٤٢ ـ النيَّة والإخلاص، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٤٣ ـ التوكل، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

٤٤ ـ التوبة إلى الله، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة بيروت.

و ـ في الدعوة والتربية

٤٥ ـ ثقافة الداعية، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٤٦ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤٧ ـ الإخوان المسلمون (٧٠) عاماً في الدعوة والتربية والجهاد، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٤٨ ـ الرسول والعلم، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٤٩ ـ الوقت في حياة المسلم، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٥٠ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد، مكتبة وهبة بالقاهرة.

ز ـ في ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية

٥١ ـ الصحوة الإسلامية بين التطرُّف والجحود، دار الشروق.

٥٢ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، دار الشروق.

٥٣ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم، دار الشروق.

٥٤ ـ الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرُّشد، دار الشروق، تحت الطبع.

٥٥ ـ من أجل صحوة راشدة تجدِّد الدين وتنهض بالدنيا، دار الشروق، والمكتب الإسلامي ببيروت.

٥٦ ـ أين الخلل؟ مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٥٧ ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٥٨ ـ في فقه الأولويات، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٥٩ ـ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٠ ـ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦١ ـ ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٢ ـ غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٣ ـ شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٤ ـ الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٥ ـ ظاهرة الغلوِّ في التكفير، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٦ ـ الحلول المستورَدة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٧ ـ الحلُّ الإسلامي فريضة وضرورة، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٨ ـ بيِّنات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغرِّبين، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٦٩ ـ أعداء الحل الإسلامي، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٧٠ ـ درس النكبة الثانية، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٧١ ـ جيل النصر المنشود، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٧٢ ـ الناس والحق، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٧٣ ـ أمتنا بين قرنين، دار الشروق.

ح ـ نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

٧٤ ـ شمول الإسلام، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٧٥ ـ المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٧٦ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم

والكهانة والرقى، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٧٧ ـ **السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

ط ـ إسلاميات عامة

٧٨ ـ **العبادة في الإسلام**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٧٩ ـ **الخصائص العامة للإسلام**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

٨٠ ـ **مدخل لمعرفة الإسلام**، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٨١ ـ **الإسلام حضارة الغد**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

٨٢ ـ **خطب الشيخ القرضاوي ج١**، مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار القلم بدمشق.

٨٣ ـ **خطب الشيخ القرضاوي ج٢**، مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار القلم بدمشق.

٨٤ ـ **خطب الشيخ القرضاوي ج٣**، مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار القلم بدمشق.

٨٥ ـ **لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر ج١**، مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار القلم دمشق.

٨٦ ـ **لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر ج٢**، مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار القلم بدمشق.

٨٧ ـ **قضايا مُعَاصرة على بِسَاط البحث**، دار الضياء.

٨٨ ـ ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق.

٨٩ ـ المسلمون والعَوْلمة، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٩٠ ـ رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق.

ي ـ شخصيات إسلامية

٩١ ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، دار الشروق.

٩٢ ـ الشيخ الغزالي كما عرفته: رحلة نصف قرن، دار الشروق.

٩٣ ـ نساءٌ مؤمنات، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٩٤ ـ الإمام الجُويني إمام الحرمين، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٩٥ ـ عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، مكتبة وهبة بالقاهرة

٩٦ ـ الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، طبعة دار القلم بدمشق.

ك ـ في الأدب والشعر

٩٧ ـ نَفَحات ولَفَحات ـ ديوان شعر، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٩٨ ـ المسلمون قادمون ـ ديوان شعر، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٩٩ ـ يوسُفُ الصِّدِّيق مسرحية شعرية.

١٠٠ ـ عالمٌ وطاغية ـ مسرحية تاريخية، مكتبة وهبة بالقاهرة.

ل ـ رسائل ترشيد الصحوة وكتب أخرى

* ١٠١ ـ **الدين في عصر العلم**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٢ ـ **الإسلام والفن**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٣ ـ **نقاب المرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٤ ـ **مركز المرأة في الحياة الإسلامية**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٥ ـ **فتاوى للمرأة المسلمة**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٦ ـ **جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

* ١٠٧ ـ **الأقليات الدينية والحل الإسلامي**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

١٠٨ ـ **المبشِّرات بانتصار الإسلام**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت، ودار القلم بدمشق.

١٠٩ ـ **مستقبل الأصولية الإسلامية**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

١١٠ ـ **القدس قضية كلِّ مسلم**، مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

١١١ ـ **ابتهالات ودعوات**، دار القلم بدمشق.

م ـ محاضرات الدكتور القرضاوي

١١٢ ـ لماذا الإسلام؟ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٣ ـ الإسلام الذي ندعو إليه، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٤ ـ واجب الشباب المسلم، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٥ ـ مسلمة الغد، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٦ ـ الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٧ قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٨ ـ لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١٩ ـ التربية عند الإمام الشاطبي، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢٠ ـ الإسلام كما نؤمن به، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢١ ـ السنَّة والبدعة، مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٢٢ ـ إنسان سورة العصر، تحت الطبع.

١٢٣ ـ السلام المستحيل بين العرب وإسرائيل، تحت الطبع.

١٢٤ ـ الإسلام والمسلمون وعلوم المستقبل على أعتاب القرن القادم، تحت الطبع.

١٢٥ ـ المسلمون والتخلُّف العلمي، تحت الطبع.

١٢٦ ـ الصحوة الإسلامية وفقه الأولويات، تحت الطبع.

١٢٧ - دروس من غزوة بدر، تحت الطبع.

١٢٨ - دور المرأة المسلمة في الصحوة الإسلامية، تحت الطبع.

* * *

خَاتِمَة

وبعدُ: فقد قدَّمتُ للقارئ الكريم في صفحات هذا الكتاب: جولةً عابرة، ولمحاتٍ موجَزَة، وقبساتٍ مضيئة من سيرةِ عالِمٍ من كبار علماء هذه الأمة ومفكّريها في هذا العصر.

وقد تعرَّفْتَ ـ أخي القارئ ـ من خلال هذه الصَّفحات على سيرةِ هذا العالِمِ الفذّ، في نشأتِه الصالحة، ومواهبِه النَّادرة، وأسرتِه الكريمة، وأولادِه البرَرَة.

ورأيتَ ما تميَّزَ بِهِ الشَّيخُ ـ الجليل ـ من صفاتٍ مجيدةٍ وخصالٍ حميدة: من الوفاء بكلِّ معانيه وشموله؛ لأهله وشيوخه وأقرانه وتلامذته وبلده ولجميع أمته. ومن همَّةٍ عاليةٍ قَعْساء، ونفسٍ أبيَّةٍ طموح، وحرصٍ على الوقت، ومحافظةٍ عليه، وبركةٍ فيه، وما يتمتَّع به من قلبٍ سليم، وصَدْرٍ نقيّ، ومعرفةٍ بأقدار الرّجال وأهل الفضل، وأملٍ عريضٍ وضَّاء بانتصار الإسلام وظهور الدين . . .

وما يتميَّز به من رجوعٍ إلى الحقِّ وخضوعٍ له دون كِبْرٍ أو استعلاء، ومن إنسانيَّة شفَّافة وروح محبَّبة. . وتلك الصِّفات والمزايا أهَّلته ـ بفضل الله وكرمه ـ ليتبوَّأ مكان الصَّدارة في نفوس المسلمين، ويكونَ له النَّفعُ العميم والخير الوفير.

وبهذه الصّفات والمؤهّلات ـ التي ذكرتُ بعضاً منها ـ اجتمعتْ كلمةُ العقلاء المُنصفين من كبار العلماء والمفكّرين، وقادة العمل

الإسـلامي على الثَّنـاء على الشيخ، وكان ممَّن أثنى عليه منهم هؤلاء: البنّـا، والمودودي، والغزالي، والمبـارك، والنَّدْوي، والزَّرقـا... وعشراتِ أمثالهم.

ورأيتَ ـ أخي القارئ ـ في هذه اللمحات والقبسات تعريفاً موجزاً بمؤلَّفاته القيِّمة، وما امتازتْ به كتابته العلميّة من الجمع بين الأصالـة والمعاصَرة، والتنوُّع والشّمول، والعاطفة والعقل، والصّياغة بلغةٍ أدبيةٍ فائقة، وعباراتٍ عذبة رائقة، وجرأةٍ وشجاعةٍ أدبيةٍ، ولهذا كان لها أكبر التّأثير على امتداد العالم الإسلاميّ، حتى تُرجمت معظم كتبه إلى أكثر اللغات الحيَّة.

وقد تعرَّفتَ ـ أخي القارئ ـ من خلال أسئلتي الموجَّهة إلى الشيخ، وأجوبتـه الوافية الشـافية: متى يكتب؟ وكيف يكتب؟ وكيـف يختـار موضوعاته؟ وهل يكرِّر نفسه؟ وهل يأتي الكمُّ على حسابِ الكيف؟.

عَرَضْتُ ـ في هذه اللمحات ـ لأكثر من خمسين كتاباً من أهم كتب الشيخ ـ حفظه الله ـ وعرَّفتُ بها تعريفاً موجَزاً، ثم فصَّلتُ بعض الشـيء بالتَّعريف بعَشَرَةٍ من أمَّهات مؤلَّفاته، ثم سَرَدْتُ أسماء مؤلَّفاته في مختلف فنون العلوم الشرعية: في العقيدة، والفقه والأصول، والسلوك والتزكية، والدعـوة والتربيـة، وترشـيد الصحوة والحركـة الإسلامية، وتحقيق الوحدة الفكرية للعاملين للإسـلام، وفي الإسـلاميات العامة، والتَّراجم والشَّخصيات، والأدب والشعر، وفي رسائله ومحاضراته التي قارَبَتْ المئة وثلاثين مؤلَّفاً بين مجلَّدات ورسائل...

ولا أظنُّكَ ـ أخي القارئ ـ تنتهي من قراءة هذه اللمحات حتى تشعر بعظيم فضل الله عزَّ وجلّ على الأمّة الإسلاميَّة أنْ هيَّأ لها مثل هذا العالِم الفذّ، والفقيه النحرير، والمربّي البصير، والدّاعية الحكيم، فهو ـ بحقٍّ ـ

نعمـةٌ من نِعَمِ اللهِ على المسلمين في هذا العصر كما قال العلاّمة الفقيـه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا.

نسـألُ اللهَ سـبحانه أن يبارك لنا في عمره، وينفعنا بعلمه، ويحقِّقَ آماله في نصر الإسلام، وتبصير المسلمين، وخدمة الدين، والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

الفهرس

الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته

* * *